شعيب حليفي

رائحة الجنة

رواية

مكتبة نوميديا 68
Telegram@ Numidia_Library



منشورات الرابطة

رائحة الجنة
الطبعة الأولى 1996
جميع الحقوق محفوظة
تصميم : أحمد جاريد
الإيداع القانوني : 917-1995
ردمك ISBN: 9981-9958-8-6
شركة الرابطة
12 شارع ابراهيم الروداني - البيضاء
الهاتف: 48.39.00/01 (02)
الفاكس: 48.39.02 (02)
سحب من هذا الكتاب 3000 نسخة
بمطابع فضالة - المحمدية

سلسلة الرواية

شعيب حليفي

رائحة الجنة

روايـــة



منشورات الرابطة

إشهاد من المؤلف

سبع ملاحظات لقارئ هذه الرواية:

لا يقرأ هذه الرواية كل الذين لا يثقون في المؤلف،

ولا يصدقون التنبيهات التالية:

١

هذا النص هو حكاية لا غير.

٢

يمنع منعا كليا تأويل السرود والأوصاف والتأملات.

وتحظر متابعة الرواية على كل قارئ يضمر نوايا التأويل، والتي هي عادة (وبالتأكيد) ما تكون سيئة، وبدعة تضلل العقل المستقيم.

٣

الأسماء والأرقام خيالية محضة، لا مرجعية لها،

وأي تشابه - لا قدر الله - بين هذا الخيال والواقع الذي

يتوهمه القارئ فهو مجرد صدفة غير مقصودة...

والله عليم ما بالصدور.

٤

يجب الإحتراس من شخصيات: عَبُّو الريح، وأحمد بن موسى،

والقيد عيسى وكل أتباعهم من موالين الوقت..

لأنهم تدخلوا - بأساليبهم المعهودة -
ومارسوا على المؤلف نفوذهم،
فحذفوا عدة صفحات تخصهم بشكل مباشر.
٥
اسم مؤلف هذه الرواية: شعيب حليفي بن محمد
وهو اسم حقيقي وليس مستعارا.
٦
يشهد المؤلف أنه أثناء كتابة الرواية وبعد الإنتهاء منها،
عانى من قضايا كثيرة كان يتخيلها فيجدها في الواقع،
وتحضره باستمرار جملة ينطقها بلسانه الذي لا عظم فيه:
لماذا أكتب هذه الرواية؟
كما يشهد أن عنوان الرواية كان هو "مكارطو أو خروب القيامة".
لكنه صار في آخر مرحلة التصفيف "رائحة الجنة" وتلك رواية أخرى.
٧
المؤلف يهدي كل هذا الخيال إلى محمد بن عبد السلام،
خدوج بنت الحاج راعا... وايضا إلى كل أولياء وثوار الشاوية.

التوقيع: لا يقرأ.
في الشاوية، مهبط الحكي:
25 فبراير 1996.

I

غبـار المعـارك القـديمـة

«اللسان مافيه عظم»

أخرس مغربي

ريح الشرقي تمدد ألسنتها اللاهبة في بطء قدري جاف، حتى أنها تبدو لسانا لماعا متعدد الرؤوس، تتوهم لنفسها أقداما رخوة، تسير عليها، رخوة حارة كتلك الأنفاس المضغوطة في صدر منقبض، وحين تهبط للوقوف قليلا تسقط، ومن خوفها الطبيعي - باعتبارها ريح - والنسيان الذي يكتنف ذراتها غير المتجانسة، فإنها تنهض أشد ذعرا وضغطا، تلحس كل شيء أخضر، ولا تترك خلفها - بيقين تام دون التفات منها لمجرد الفضول وحده - غير العطش والحلوق الجافة.

الريح تتحول باستمرار ولا تقف عند جهة معينة.. فلا تستريح أبدا حتى ولو كانت جهة الحنين فاردة وجدانها على الليل والنهار، وبالتحديد كاهل المساء: حصير المتعبين.

دنا عبد السلام من الألواح المطلية بالصلصال، فلطخ يديه كأي طفل يبحث عن افتعال شيء ما. ثم يجري - كعادته في سباق الريح - نحو الغابة المواجهة لمكارطو الدوار.

ابتدع الأطفال في أيامهم المشتعلة طريقة لتقسيم الغابة إلى أشجار، كل واحد منهم سجل اسمه أو وضع علامته المميزة على أربع شجرات خروب.. وحده من يأكل فاكهتها الجافة ويعتني بأوراقها المخذولة أرضا، ويحرم على الآخرين الجلوس تحت ظلها دون إذن.. ويبيح للطيور الوقوف على الأغصان أو بناء عش حتى يرث الطيور التي تولد فوق شجراته.

تحسس عبد السلام العشي علامته ثم أغمض عينيه وصعد إلى شجرته الضخمة. وضع طربوشه المصنوع من الدوم. شرع يمسح ورق الخروب لفترة، بعدها قطف خروبة، مضغها وهو شارد النظرات، يداه تعبثان بلمس خفيف في ورق الخروب.

الريح تتشتت كلما دخلت الغابة، فتختار التسرب من الأسفل، تلاعب الأوراق الميتة والقتيلة، تخرب الممرات العلنية والسرية لأسراب النمل. عبد السلام لم ينتبه لشيء لأنه وحيد من غير أصدقائه الذين اختاروا الجلوس على حصائر المسيد عند الفقيه سي عمر أمقار، ينوب عنهم في تأمل شجراتهم، من بعيد، فيختلط عليه التأمل بالشرود، بحزن خفيف يركبه بسنواته التسع العامرة بكل شيء.. يتذكر لألْتهُمْ، أخته الصغيرة، التي يكبرها بسنتين، فيقطف خروبتين من أجلها... لكن حركة بعيدة غير عادية تمسح شروده بسرعة فينتبه للخطوات التي دخلت الغابة. كلب بالتأكيد ليس من مكارطو، لأن عبد السلام يعرف كل الكلاب التي خضعت، بدورها، لاقتسام طفولي بينهم أيضا. لا يستطيع التخمين في شيء آخر. لحظتها، وبسرعة ارتمى من الشجرة بعدما ترك طربوشه معلقا، فانتبه الكلب لهذا القدر الخروبي النازل، رجلاه الأماميتان اللتان كانتا غير آبهتين برمي الخطوة القادمة،

حولتنا - بشعور داخلي موروث - الاتجاه فرارا من ردى محتوم.

مطاردة صامتة بالحجارة، والكلب لا يلتفت حتى لا يفقد خيط لهاثه، التفاتة ستجعل الرهبة أشد سلطة على القلب والرئة رغم الضربات التي تصيبه من حين لآخر.

تعب لأن الرياح تعاكسه والزبد الرمادي من فمه يتطاير مع مضغات ظلت عالقة بين أضراسه من تلك الخروبة التي قضمها باشتهاء. رمى بما تبقى من الحجارة في وجه الريح ثم واصل سيره نحو مكارطو، متحسسا من حين لآخر الخروبتين، حائرا بين رغبتين في مضغ واحدة أو تركهما لأخته لاَلَّتْهُمْ. وقف مرة أخرى يلتقط أنفاسه متماهيا مع شيء بداخله، فيتخيل نفسه ذلك الساحر الذي - مر قبل سنة بمكارطو - يلعب بالبيضة ويدعي أنه حينما يرفع يمناه يستطيع أن يوقف الريح مهما كانت عاتية، وأخبرهم الساحر العطعوط بقدرته على استقدام البحر بنظرة واحدة من عينيه الواسعتين.

رفع عبد السلام يده اليمنى ثم تبسم وعاد يجري جريا شبيها بفرار العطعوط والأطفال يطاردونه بالحجارة مثل كلب ادعى البدع.

الجهات تصرف رياحها بنظام واحتساب، ووحده سي عمر أمقار الذي يجيد، في كل مكارطو، معرفته بأحوال السماء والنجوم فيفتي ويتنبأ انطلاقا من معطياته العينية وحدوس لا يصدقها أبدا إلا أمام السكان.

في العام الخامس من قدومه إلى مكارطو شحت السماء فتكاثرت الأسئلة على الفقيه بخصوص موعد الأمطار، حتى مل وتضايق ممن يبتدعون أسئلة غريبة وملتوية أو الذين يطرقون بابه في منتصف الليل.. فكاد أن يفقد أعصابه ولم يسلم إلا حينما صاح، في صباح يوم أربعاء بالسوق الأسبوعي لمكارطو، مجيبا أحد السائلين قائلا له بجدية غير معهودة: أن ينظر إلى أذني الحمار فإذا كانتا منكمشتين فإن الأمطار ستنزل بعد يوم واحد، أما إذا كانتا على حالهما الطبيعي فليطلبوا الرحمة والمغفرة، ومنذ ذلك الحين وعلى مدار العام كله، كان الرجل الراكب لحماره ينزل من حين لآخر، ينظر إلى

الأذنين، أو يتلمسهما إن اقتضى الحال لدفع كل شك في ذاته. كما أن الرجل يدعو زوجته في منتصف الليل للخروج إلى مربط الحمار لاستخبار إذا ما تحقق الإنكماش حتى تتحقق الرحمة.. ولما تناسوا الأمر كله وسقطت الأمطار، تسربت حكاية في نفس السنة، تقول انه قبل يوم واحد من تهاطل الأمطار بكارطو، خرج الفقيه سي عمر كعادته للتبرز في فضائه فشوهدت خصيتاه منكمشتان، تحسسها ثم نظر بعينيه إلى السماء.. وقال مبتسما: الحمد لله.. كما أشاع ذلك عبو الريح بين الناس.

مربع من الحجارة المتراصة بتراب أحمر تفتق عنها خز أخضر ومعرشات نباتية صغيرة، مسقوف بأعواد محزومة، يجلس الأطفال - وهم لا يتجاوزون الخَمْسَ عشرةَ - على حصير بعدما خلفوا نعالهم أمام باب المسيد وتسلموا ألواحهم من جانب الفقيه سي عمر الذي جلس على سجاد صوفي من بطَانَة خروف العيد.

ألواح متقاربة الأحجام، ذوات خرم علوي بشريط من الدوم، وعادة ماتكون مستطيلة من خشب عادي يحتمل طلاءه بالصلصال.

منذ الفجر يبدأ الأطفال في القراءة، فرادى، بأصوات تزداد مع طلوع الشمس، ومن حين لآخر يتبادلون الألواح فيما بينهم، لأن كل لوح يحمل نصه الديني القصير، وهي مرحلة لاحقة عن حصة التعليم الجماعي الموحد بنص واحد مكتوب على كل الألواح، يقرأ ويستظهر جماعيا ثم تأتي مرحلة الاستظهار الفردي.

الطريقة الأخرى التي يسلكها الفقيه سي عمر أنه يكتب لكل طفل نصًا في لوحه، يقرؤه ثم يستظهره ويتبادل به، وهي عملية تستغرق أسبوعا، بعدها في وقت الضحى يخرج الأطفال بألواحهم جنب البئر فيدلقون دلو ماء في الجفنة ثم يشرعون في محو الألواح.. *"ربي إني محوته من اللوح، وحفظته إلى الأبد في الروح"*.

بعد ذلك يعملون على طلاء ألواحهم بالصلصال الذي يجعل اللوحة ذات لون رمادي بكر، ثم يبحثون عن خيوط الشمس بعد رفع ألواحهم حتى تجف، وكل من

جفت لوحته، يدخل عند الفقيه الذي ينظر إليه نظرة العارف كما لو أنه يقرأ رسالته في عينيه، فيأتيه بآية يحمل على إثرها قلما قصبيا يغمسه في دواة ملأى بصمغ أسود مغموس بدوره في قطعة صوف.

سأله عياد العشي ممازحا:

- سمعت أنك لا تعلم الأطفال كيفية الصلاة آسي عمر؟

- لم يطلبوا مني ذلك.. ثم إنهم ليسوا بكفار.

- إن تعلم الصلاة في الصغر كالنقش على الحجر. ألم تقل هذا؟

- نعم قلته من أجل الكلام فقط، مثلكم أنتم حينما قلتم لي منذ ستة أشهر أنكم ستزوجوني أرملة سيدي الخمال.. لكن بدون فعل.

- أنت ياسي عمر عالم وفقيه ونحن جهلاء، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

- آسي عياد... زوجوني من الأرملة وأكتب لكم بخط يدي أنتم العلماء وأنا الجاهل.

□ □ □

في الوقت الموعود، يضعون ألواحهم في زاويتها المرسومة ثم يخرجون في هدوء إلى عتبة الباب حيث يقفزون كأنما ودعوا وداعتهم وخرجوا للهراش والصراخ فرحا بسراحهم من سويعات الفقيه الصلصالية.

أيام المطر، حينما كان سي عمر أمقار ينتشي خلال المساءات الهادئة والتي هي كالمحاة القدرية التي تستغفل تذكرات الحروب والحرائق.. يدعو الأطفال لوضع الألواح جانبا، ويسرد عليهم كيفية اصطياد العصافير، أنواعها، أشكالها وأصواتها وطرق الإستماع إليها، مستفيضا في شرح أقوالها وعلاقة كل ذلك بسيدنا سليمان كليم

الطيور والهدهد وقلبه السحري الذي إذا أكله طفل غير راشد صار عقله يزن أرض الشاوية كلها. بعد ذلك يخرج من جواره فخا سلكيا، يفككه ثم يعيد تركيبه أمامهم حتى يتعلموا كيفية صنع الفخاخ، واعدا إياهم بأنه سيعلمهم، في العام المقبل، كيف يصنعون المنادف التي تتصيد الثعالب والذئاب والبغال والإنسان.. ولم ينس الفقيه أبدا تعليمهم طريقة غسل الميت ودفنه.

كان سي عمر يكرر عليهم هذه الدروس الممتعة حتى أن الأطفال كانوا كلما اصطادوا عصفورا، قتلوه كي يجربوا فيه وصفة الفقيه في الغسل والدفن.

عاد العشي ليسأله ضاحكا:

- ألم تجد بابا تدرسه للأطفال إلا غسل الميت؟

- سينفعهم آخالي عياد في حياتهم.. لأن ما سيأتي من زمن هو للحروب فقط.

- وأين قرأت هذا يرحمك الله؟

- قرأته، أنا وأنت في تراب مكارطو، وفي الحرائق التي خلفناها تشوي لحوم أهالينا في الأعشاش... وقد دونت كل هذا في كناش لي بعنوان "ثورة الأعشاش".

- وما علاقة الحرائق بنا نحن الآن؟

- الشاوية يا خالي، درسة واحدة ستدريها سنابك عديدة. هل تشم رائحة الأدخنة؟ أتذكر الجنة؟

- لقد نسيت، آسي عمر، ولم أعد أفهم شيئا.

- قل الله يستر العاقبة بخير وأنت تفهم.

بعد ذلك ينتقل الحديث إلى شبه كلام خافت وثقيل، عقبه يعتدل الفقيه سي عمر في جلسته، معدلا من طربوشه الأحمر وعلامات الأسى قد جمعت في عينيه حوض دموع حارة... يشعر عياد - إثرها - أن الفقيه عاد إلى جُرحه الوحيد الذي لم يطله النسيان.

- لست وحدك. الغمة نزلت علينا جميعا.. فلماذا تصر على إيقاظها فينا الآن.

لماذا شربت من الأدخنة التي خلفناها؟ يقول عياد للفقيه وقد انخرس وأخذ رأسه بين يدين ترتعشان بَعَرقِهما.

مع بداية فصل الخريف، يتهيأ عبد السلام لمراجعة فخاخه الحديدية والبحث جوار البئر، في البرك، عن الدود الذي يعرف كيف يرفع عقيرته عاليا حتى يغرر، مكرا، بالعصفور البرئ - دون حساب للأقدار - فينزل بكامل رغبته وإرادته إلى فكي الخديعة المدللين خلف طبقة رقيقة من التُّراب. هبوط ولمسة واحدة فقط لالتقاط رأس الخديعة، فينهض الفكان من سترهما الغباري المنتظر لالتقاط عناق حميمي بين عصفور متشوق غرته ضيافة الغبار ودودة لن تجد غير اعتراف متأخر تبرر به موقفها، في لحظة لا حجاب لها، يتحقق العناق بين فكين ساديين على عنق لم يحلم أبدا بقلادة الموت. طق، صرخة مختنقة وممزقة بدهشة الشماتة ولعنة صارت فوق رأس العصفور تاجا متهما سمم الجسد بداء فقدان الحياة والحرية.

عبد السلام وحده الذي لم يدخل إلى مربع الفقيه سي عمر، فكل أطفال مكارطو، في سنه، جلسوا على الحصير وقرؤوا في الألواح وذاقوا من عذابات الفلقة وجر الأذن الشيء الكثير الذي تنسيه نظرات الفقيه العارفة وهو يدون لهم وحيهم الهابط إليهم، وأيضا دروسه النادرة في المساءات القليلة حول كيفية اصطياد العصافير وغسل الميت.

عبد السلام يحرص على الإستماع من أصحابه إلى ما يقع داخل المربع، ورغم ذلك فإنه الوحيد الذي كان يصنع لهم فخاخهم، ويبقى لوحده باحثا عن مغامرات صغيرة تليق باندفاعه وإحساسه الشامخ بالحياة.

- لماذا لا تدفع بابنك الى حصائري حتى يتعلم بعض الحروف؟ (يقول سي عمر لعياد العشي معاتبا).

- ولماذا سيتعلمها مادام كبير القياد عندنا جاهلا بدوره، بل يقول في

المواسم أنه لو تعلم لضاع.

- أنت الجاهل يا عياد، وأن تترك عبد السلام للجهل لذلك مخالف للشريعة ولأعراف سيدي ومولاي علي الشاوي، هل نسيت؟

- أية شريعة؟ (يخفف من حدته ويعود إلى خفض صوته مستطردا) زمن علي هو غير زمننا، ثم لماذا تصر على تذكيري بكل الماضي. ارحمني آسي عمر.

- لماذا صدرك منقبض هكذا؟

- بل أنا الذي أسألك، لماذا لا تَنْسَ.. وأنت المؤمن الذي يَحثنا على الصبر والنسيان.

الفقيه -وقد تيقن أن القراءة بالنسبة لعياد العشي هي شيء مازال الطريق إليه بعيدا وشاقا-:

- ماهي شروطك حتى يقبل سيدي الولي الصالح عبد السلام تشريف حصائرنا الصفراء، والنظر إلى ألواحنا بنظراته المباركة اللطيفة (قال الفقيه في هزل).

- لا شروط بيننا، آسي عمر، فقط أن تجعله يقرأ من الكناش الذي دونت فيه مصيرنا السابق بالأعشاش.

هم الفقيه بالتعقيب لكنه تراجع وعاد للحديث عن مرض "بُوكْلِيبْ لَكْحَلْ" الذي يقتل النعاج هذه الأيام، وعن الثعالب المسعورة التي احتلت الجزء الغربي من الغابة.

حينما ينهض سي عمر يبدو لأي غريب أنه مازال جالسا لقصر قامته التي توقفت بقدرة الواحد القهار في متر وشبر واحد، فقصرت قامته وكل أعضائه الأخرى، حتى صار مألوفا بشكله ذاكَ منذ حوالي عقدين ونصف على قدومه إلى الأعشاش ثم مكارطو مع الخروج الكبير.

تزوج ثلاث مرات، لم تبق في ذمته غير واحدة مريضة، على الدوام، بآلام في رأسها ولاتهدأ إلا حينما تنام بالليل والنهار.. فمنعه حنانه وإحساسه - الهابط

باستمرار في تحرقات الوجدان - من تطليقها شفقة بها ورحمة بنفسه من الوحدة بعدما ذهبت الأخريات خارج مكارطو.

إحدى مطلقاته، وكانت حولاء سافرة، تختار الوقوف بجانب البئر، ثرثارة، لم تعمر، بسلوكها، في بيت الفقيه غير شهرين فقط. واستطاعت أن تذيع، بين بعض ممن تضحك معهن بسفور، أسرار الستين يوما في فراش الفقيه، وقالت إن نومها مع سي عمر كان عجبا، وتمادت في وصف فحولته القاسية، ومائه الذي لايشبه في لونه أو كثافته ماء الرجال، مثلما رسمت حجم أعضائه وقدرتها على الصمود الليل كله لهذا كان يقول لها أن تسمي أعضاءه تلك ب "بركة الفقيه".

تسربت هذه الأخبار إلى سمع الأهالي، وضمنهم الفقيه الذي حمل، في صمت غير معهود فيه، كل حوائجه وأسرج بغلته ثم ركبها مغادرا مكارطو.

سألوه، فلم يتكلم لأن الغضب كان قد كتم على كل لغاته، فتدخل أخيرا منصور وبنطاهر وعياد لفض هذا المشكل، فلم يجدوا شيئا يجعله يعدل عن قراره إلا بطرد الحولاء من مكارطو حتى لاتفسد الأخلاق بكلامها وأفعالها، فاستراح الفقيه وباح للعشي بأن ماقالته مُطَلَّقَتُه صحيح، ولكنها لم تقل أنها كانت تزغرد - دون وعي منها - حينما تجتاحها الرغبة برعشتها، آن تفيض بركات الفقيه. ثلاث زغرودات تليها صرخة منها "والله ينصر مولاي القايد واولادو"؛ ليس لي أولاد وإنما تقصد بركتي... هل أكتم أنفاسها أم أحول القايد إلى عينها الحولاء لتبييض السواد المنحرف فيها؟

يضحكان، ويسترجع العشي ماكان يقال دائما حول مايسمعوه من زغاريد من بيتها خلال زواجها الأول أو الأخير، ولما كانت النساء تسألنها تقول: "إنها عادة أجدادنا الشرفاء، أن نرش الليل بالزغاريد" فصدّقنها.

الرعشة تأتي دائما في الأقصى، وهذا الأقصى لا يمكنه أن يبعد عن

الأعشـاش مـن جهـة الشمـال، وعـن مكـارطـو مـن جهـة الجنـوب.

□ □ □

أخذه الفقيه من يده وقال له لائما بود:

- استـرح قليـلا ودع بنطاهر ومنصـور يخرجـان، هذه المرة، بالحركـة ضد أولائك الذين يريدون تكسيرنا حتى يبيعوا أرضنا للأجانب.

- إنها الرعـشة التي أحسهـا وأنا في المعارك أدير الرحى. (قال عيـاد العشي ثم تنهد واستطرد):

نفس رغبة العـشي الكبير رحمه الله. لن أخونه. لن أخون الأرض... سنبيدهم كما أبادوا أجدادنا.

يكتشف أنه استعاد أمام الفقيه صفة المحارب التي يؤجلها لزمنها، فيـهدئ من غضبه ويحول الموضوع إلى دفة أخرى:

- أتعرف لماذا لا أريد لعبد السـلام أن يتـعلم الحروف...(فتح الفقيـه فمه كمن يريد السـؤال لماذا..؟ ولكنه لم ينطق بهـا) حتى يخلفني اذا مـا سقطت في الحـركات، كما خلفت العشي الكبير.. إننا سلالة محكوم عليها ألا تندثر أو تضعف.

- وما علاقة كل هذا بدخوله المسيد؟

- العلم الذي عـندنا يضعف الروح، ويدخل الـشكوك إلى العـقل، فـيسـهل عليـه التراجع والتسـاهل في قيمنا وتبرير ذلك بسهولة.

- أنت مخطئ، ياعياد، فالعلم حصانة للروح، وسلاح آخر لمواجهة أولئك.

- (يرد عيـاد بعنف) صحيح. أنا مخطئ. أنا الجاهل وأنت الذي تعلم كل شيء، ولكني أومن بأن العـلم الذي يجب أن نعلمـه لأطفـالنا هو كيـف تحيـا واقفا وتموت واقفا دون أن يكسرك أولئك أو ينشروا الخراب بداخلك.

- محارب متعلم خير من محارب جاهل.

- (انتفض عياد مرة أخرى وقد تبدل صوته) الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في المدينة هم من ذبحونا، دائما، ووقعوا على موتنا في كل مرة. والآن يجدون التبريرات لإدخال الفرنسيس إلى أرضنا حتى يصبحوا زعماء.

قامته الطويلة وعيناه المحمرتان باستمرار وغضبه الرصين هي أولى سمات عياد الذي يفهم جيدا أن الحروب والمعارك، هي أساسا، لمواجهة الذين يبيعون الأرض للأجانب أو الذين يتكتلون في شكل عصابات يسخرها البعض لاستحكام قبضتهم في الشاوية.

عاد منصور وبنطاهر من حركتهما بعد تسعة أيام من ذر غبار المعارك، فدخلا على عياد وتحدثا معه قليلا ثم غادراه إلى خيمتهما، هما الآن الأشد في الحرب والجسوران إلى جانب عياد العشي. الثلاثة لهم القدرة على التخطيط لصد الهجومات القادمة باسم المخزن والمستطلعين الأجانب بقبعاتهم السوداء.

الثلاثة من سن تقترب من الخمسين، ومن روح ملتحمة منذ الطفولة رغم أن عيادا وافد عليهما من الأعشاش منذ تسع سنوات.. فصار المحارب الثالث الذي خلق ليكون سمادا وسط غبار المعارك.

عياد العشي قدر ولد في السنة التي اندلعت فيها حرب تطاون بعد أخيه سيد الساهل الذي يكبره بأربع سنوات وسيهاجر إلى أنفا طفلا يستقر ويتزوج هناك، أما عياد فقد بقي بالأعشاش فلاحا وتزوج من الفاضلة العمرانية في العقد الثاني من عمره، وبعد ست سنوات ولد طفلهما، الأول، الفاطمي، سيموت في الحرب وعمره ثمانية أعوام، ثم وضعت عشية التي ستموت بالتيفويد في سنتها السادسة قبل ثورة الأعشاش بأربع سنوات، وهي الفترة التي ولد فيها طفل غير مكتمل فمات. وفي سنة الثورة والحرائق يولد عبد السلام وبعدها بعامين في مطلع القرن العشرين ستولد لألْتَهُمْ الطفلة.

قال عياد العشي للفاضلة إن هذا الطفل هو الذي سيعيش ويحمل بذرة

السلالة.. قدر سلالتنا أن تحيا وسط الحروب وكل مولود خارج الحرب محكوم عليه بالضعف أو الموت.

كل شيء يبدو عاديا في النهار. الفاضلة منهمكة خلف منسجها الذي تصنعه خيطا خيطا. أو في البهو، خلال المساءات، أمامها المكب تغزل عليه الصوف الذي ستحتاجه لتلك البطانية أو ذلك الجلباب.

عبد السلام أكثر اعتناءاً بالمكب والمنسج وكل المغازل حتى أنه سعى، بفشل واضح، إلى صنع مكب خمن مفاجأة أمه به.

الفقيه في مسيِّده، ومن حين لآخر يأخذ سطلا عامرا بالماء متجها جوار سدرة نبق جانبية ليتوضأ.

أهالي مكارطو منهمكون في شؤونهم الفلاحية العادية والإعتناء بماشيتهم وجيادهم.. وكل ظهيرة كانوا يجتمعون على مائدة الغذاء لتهييء (عشاء الميت)، ثم يتسلل خمسة منهم للمطامير الخمسة المغطاة بالتبن، حتى لا تظهر للغرباء. هناك أسلحتهم التي تنتظر التنظيف والمراقبة قبل أن يتسلمها المكارطيون في الليل لإنجاز مهامهم الحتمية.

بنطاهر، منصور وعياد.. هم قادة الرحى في مكارطو؛ وكل رحى مكونة من ثلاث مائة مكارطي يعملون بالتناوب، فرقا تتوزع في مختلف جهات الشاوية، وبتنسيق مع القبائل الأخرى.

الليلة يخرج ثلاثون مكارطيا يتقدمهم عياد العشي، فيما بقي الآخرون، على استعداد لأي عيطة تستنفرهم للإمداد.

عاد الثلاثة ينسقون في أغلب العمليات مع الأعشاش والمزامزة وأولاد حريز مما أعطى للعمليات طابعا عنيفا ودقيقا في ضرباتها المحكمة وإن كانت خسائرها محدودة في عدد القتلى.

قبل "ولد المخزن" وهو لقب أطلقوه على الحاج الشرقي، شيخ مكارطو، كان هناك شيخ آخر اشتهر بولائه.. مات وهو متجه إلى الدار البيضاء، ميتة بشعة اقترنت بذهابه إلى المحلة المخزنية للإفشاء بمواقع المحاربين.

استدعى الثلاثة ولد المخزن وقالوا له أمام جماعة من ندمائه: "نحن نعرف أنك عين المخزن هنا، لابأس فأنت واحد من أولئك، ولكنك حينما تفكر في نقل أخبارنا إليهم فإنك ستنفق اليوم قبل الغد، ويصل إليهم خبر موتك قبل وصول أخبارنا". لم يتكلم، ولكنه أشار برأسه موافقا ثم تراجع إلى الوراء لا يريد التفكير في شيء غير الإنكماش.

تستمر الحروب. والحرب مدرسة للحياة تقوم النفوس وتنفض الغبار عن ركام الأحقاد والأخطاء، ولايمكن لزمن الشاوية أن يستمر دون حروب تطهر أدران هذا الزمن.

الحرب فلتة من فلتات القيامة على وجه الأرض، مثلما هي بعض الكائنات التي يظل فعلها يشدو في القلوب والعقول.

الحروب تتأجل دائما فتطفو المعارك لتطهر أو تهيء ما ستطهره الحروب.

كلما عاد الثلاثة من معركة خاسرة لم تحقق أهدافها المخطط لها أو مات من صفوفهم عدد لم يحسبوا له.. أبدوا لبعضهم البعض، ظاهريا، تفاؤلا كبيرا بقصد تشجيع المحاربين الآخرين والحفاظ على روحهم العالية. لكن، حينما يختلي كل واحد منهم بنفسه يبقى حزينا هائما في ليل مكارطو؛ أما في لحظات الإنتصار فإنهم يظلون على حذر لأن الحرب الكبرى لم تحسم بعد "ولكنها معارك نجمع غلتها للمستقبل".

- المخزن الحاكم أو بطانته تركت كل الوطن والتفتت نحو الشاوية، قال سي عمر أمقار يخاطب الثلاثة، ثم يحدثهم عن أحمد بن موسى الذي غسل أثواب المخزن بدم الأعشاش والآن يترك حفدته وتلامذته ليواصلوا نفس المهمات.

لا أحد في كل الأزمان يستطيع التخمين في المستقبل ولا أحد يمكنه أن يتهرب

من علو الدهشة في ما يقع. لأن الألواح القدرية المطلية بتراب الشاوية والتي تحكي مصائرها لا يوجد فيها تفسير منطقي لسعار المخزن وهذا الآتي الزاحف.

□ □ □

وسط هذا الزمن الصاخب حبست السماء أمطارها، كما تعودت الشاوية من حين لآخر بعد أعوام الخصب. ولم تعد الرائحة القدسية الطالعة من الأرض تتسرب متخايلة لما كانت.

قام عبد السلام بسنواته الغضة فخرج من باب الخيمة ثم استدرك وعاد ليستنهض لالتهم، أخته، من نومها.

يحمل الْعَتْلَة ذات الرأس الحاد، أما لالتهم ذات الضفيرة الواحدة بعمشها الصباحي فقد حملت قفة من الدوم الأخضر تتبع ذلك الفتى الصغير الذي لايلتفت لشيء.

– ما أشد يتم السماء. هكذا تكونت جملة من ارتطام أقدام عبد السلام بالأرض العارية.

يسير بعيدا من غير التفات بحثا عن نبتة القيامة المرة في ذلك السهب الذي دخله فتراءت له وريقات ملتصقة بالأرض، خضراء منفلتة عن عود طري تسمى ايرني شبيهة بشمندرة صغيرة.

تقف لالتهم عن قرب، تراقب عبد السلام الذي شرع في الحفر عن النبتة الحاملة لعلامتها الخضراء، ثم تجمعها في القفة وتجيل ببصرها إلى الحفر الأخرى التي ملأت قففا غيرها بهذا الزاد الجهنمي.

عاد العشي منهكا، فمر وهو على بغلته بجانب الفقيه وأصدقائه الآخرين القاعدين قرب حائط خرب لا يستطيع أن يعكس إلا ظلاله المخربشة الخجولة. لم يكلمهم وإنما استمر راكبا حتى وصل باب خيمته فنزل دون أن يقيد بغلته، ودخل

ليلبس جلبابه المتلون بسهو يتكثف لونا أصفر على وجهه الرخي.

في قبته وجد عبد السلام ولالتهم يلعبان في صمت فأخذهما بين ذراعيه، فيما أمهما كانت تجلس القرفصاء أمام قدر يغلي فوق كانون ملتهب.

قلبها يتحرق وعياد يتنازل عن كبريائه وسلطة هيبته التي عود البيت عليها، فيضم في انكسار مفضوح، ولديه وقد انحنى على ركبتيه حاسرا جلبابه. دمعت عيناه واندفع في شهيق يتجاوزه.

قامت الفاضلة مندهشة، مثل ابنيها، ولم يستطع أحدهم خلخلة شموخ ذلك الإنكسار النادر.

نهض دون أن يجفف فتنة دموعه. رفع بصره في الفاضلة ومن غير تكليمها. اتجه نحو خابية الماء لغسل وجهه فتبعته يملؤها إحساس غريب، فجائي لم تتعوده من زوج ولد للحروب القاتلة.

- الجوع يتجذر - قال لها وأضاف - والمرض لكحل كيحصد في الناس وأنا خايف على ولادي.

تأكدت أنه انتهى من كلامه وغسل وجهه فوضعت الإبريق وسلمته طرفا من الكتان للمسح وهي ترد عليه:

- الله كبير فوقنا يرحم الضعفاء.

طرق خفيف للفقيه سي عمر الذي دخل بعدما انسحبت الفاضلة لتهيء بعض الحليب. ولما وصل الى عتبة القبة لم ينحن لقلع الكراك الذي ينتعله وإنما مد يده بعدما رفع رجله اليمنى ثم اليسرى فبسمل ودخل ليجلس قرب عياد العشي.

- استغفر الله ربي العظيم الواحد القهار.

افتتاح يليق بفقيه يريد مباشرة الحديث مع صديقه الذي مر من أمامه كالحا حزينا، فعمد عياد إلى هدم أية مقدمات بشكل عادي وقال:

- الجوع أبويا كيحصد الآلاف، والمرض سيزحف علينا قريبا. كنت بالمزامزة وسمعت بالمرض لكحل الذي عاد ويوجد بتطوان وطنجة.

- نعم، يا عشي، إن الله رفع عنا الألواح وتركنا في هذه البلاد أيتاما جائعين ومرضى. قبل بدء الدنيا وقفت الناس أمام ألف باب وباب، فهرعوا جميعا إلى الأبواب الجميلة يلجونها إلا بابا مهجورا اختاره جدنا الأول بدافع المغامرة ورغبة في اختراق المألوف، فدخل إلى الشاوية من الباب المهجور. رد الفقيه.

- لم نجد قمحا ولا شعيرا. هل نخبز الأباريق والشكاوى الجافة أم الخروب أم نبتة الجحيم؟ تواصل حديثهما إلى وقت طويل ثم خرجا أمام الحائط الخرب، جوار منصور وبنطاهر وآخرين، ونادى العشي على عبد السلام بأن يأتيهم باللبن.

في ذلك الفضاء المدد، الصمت والصهد والقحولة.. أشياء رئيسية لاتحتاج إلى ديكور آخر ليزيدها بؤسا غير الحائط المخروب وقلوب رجالية أكثر خرابا.

ريح قامت كأنها فحيح صاهد تريد لحس أي شيء، فلم تجد غير التراب الناشف والأحجار الساخنة.. ولما حاولت أن ترجع من حيث أتت.. لم تتذكر الطريق. تاهت. حارت لأنها موسومة بالنسيان ثم تمنت أن تقعد ففوجئت بدهشة لاتقل عن دهشة الآدميين بأن هيأتها لا تتكثف إلا في الخيال مثل الأساس العامر به هذا الزمن.

صار الحائط الخرب مسنودا بأزيد من ثمانية محاربين يحتسون اللبن وخبز المحراش ويتحدثون عن معركة الجوع الجديدة.

عياد العشي لم يتكلم ولكنه من وسط سهوه يستمع إلى حوارات محاربين في استراحتهم القدرية.

- بعد غد الجمعة سنصوم استدرارا لعطف السماء ثم نخرج للإبتهال في صلاة للإستسقاء.

- هذا ما صاح به أيضا براح المخزن عندنا في المزامزة.

- نحن في مكارطو لانصوم أو نبتهل لأن المخزن قالها.

- إما أن يرسل جيوشه لقتلنا ونهبنا أو براحيه للأوامر.. وأين هَرْيه العامرة بزرعنا وخزائنه الملآى بما نهب منا ؟

- لا يهمنا المخزن أو مخازنه بل الله الذي نبتهل إليه.

تناسل الحديث فلم يطرح غير كلام يضرب في الجوع وكوارثه المستتبعة، فالأخبار تتواصل عن آباء فروا تاركين أبناءهم، وآخرين دفنوا أولادهم حتى يختصروا دورة الزمن ويجرفوا التعذيب النفسي.

دواوير كلها هاجرت إلى شمال البلاد ، وأخرى قررت التربص جوار مزبلة المحلة المخزنية فلم يشبعوا من البلاغة في وصفها ووصف البغال المحملة بأشهى المأكولات والمواد الأساسية لصنع البسطيلة والزميتة باللوز، وأيضا اللحوم المجففة التي تذوب في الفم كما تذوب الحلويات المتنوعة..كل هذا وسط أنواع الطيوب والبخور والجواري العاريات بلحمهن الذي يؤكل نيئا.

تصدى الفقيه لهذا النهر من الحكايات القريبة ليروي لهم بدوره ماقرأه عن المؤرخ الضعيف الذي قال بأنه "*كان لا يقدر أحد أن يذهب لمراكش على بلاد الشاوية، وكل ماجاز عليهم أكلوه ونهبوه حتى أن السلطان برح أن كل من جاز على الشاوية فلا يلوم إلا نفسه، ومن أراد مراكش أو سوس أو زمور أو الصويره فليركب البحر*" .

تمدد يحك رأسه ثم يغمض عينيه ويشد بإبهامه وسبابته على حاجبيه، يحكي عن الخطأ والخطيئة في كل شيء والانقلاب الذي عم الحياة.

الحق والباطل لابد منهما للمعرفة الصحيحة وتَغْرَازْ العقل وسلامة الرؤيا. بالشكل الذي عندنا.. حق يراد به أباطيل، وباطل في لبوس الحق. الأمر واضح... بالشاوية، وفي مكارطو بالتحديد. كان رجلان هما أول من استوطن بالمنطقة بعيدا عن سكان الدواوير الأخرى، يقال أنهما توأمان الأول إسمه الحق.. بسيط متسامح دمث

الخلق عادل رؤوف إلى حدود السذاجة، أما الثاني فيدعى الباطل عرف عنه العنف والادعاء والمكر وإضمار الشر حتى اشتهر كل واحد منهما بصفاته وأصبحت الدواوير الأخرى تحظر على الباطل الدخول إلى أسواقها أو المرور بحقولها حتى تعب وضاق، خصوصا وأن الحق مرتاح البال. فداخله الغرور من كثرة المدح والمجاملة والهدايا حتى أصابه الكساح وانتفخ فلم يعد بقادر على المشي.. آنذاك فكر الباطل في حكمة الأجداد "مصائب الحق عند الباطل فوائد" فتقدم يتودد الحق ويفرش للحديث بالكلام الجميل.

– أخي الحق، أريد البرهنة لك عن توبتي ومحبتي.

– وماذا أيضا ؟

– أريد أن أكون حمارك وخادما أحملك حتى أكفر عن كل ذنوبي في هذه الدنيا.

ضحك الحق وقد انطلت عليه الدسيسة، فصار يحمله على كتفيه، يذهب به إلى الأسواق والمواسم وفي كل مكان. في البداية استنكر الناس مارأوا ثم تغاضوا وبرروا لأنفسهم المسألة بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.. ومع مرور الوقت صار الأمر مألوفا ولم يعد الحق بقادر على الاستغناء عن ظهر وكتفي الباطل، ودون أن ينتبه أحد إلى أن الباطل هو الذي كان يمشي ويسود، صار الشلل في لسان الحق وأصبح الباطل يتكلم باسمه، يناقش، يجادل، يتفاوض ويقرر، ولا أحد يستطيع أن ينقض، بل لا وقت لأحد كي يتأمل كيف صار الحق مجرد أثاث فوقي على رأس الباطل وقبعة تقيه حر الشمس وبلل المطر.

□ □ □

تسلمت الفاضلة من عبد السلام القفة الملأى بإيرني. ثم رمته في القدر الذي يغلي بمائه فوق النار، في انتظار أن تسلق تلك العروق على مدى ساعات طويلة يتغير فيها الماء أكثر من مرة لإزالة صفرة مرارته السامة.

قال سي عمر أمقار: "حتى ايرني، نبتة القيامة، قتلت الكثيرين ممن لم يجيدوا سلقها، فتسمموا وماتوا".

في الصباح تنهض الفاضلة. تدلق الماء من القدر، وقد امتسخ لونه إلى الإسوداد، تشع منه صفرة مختنقة ثم تفرز إيرني وتنشرها في الشمس حتى تجف.

عياد العشي يحكي عن الأسواق الفارغة إلا من غبار وصهد وريح متقلبة مثل أحاديث الناس. أما البهائم فقد ماتت، وكل من يملك بهيمة ذبحها وجفف جلدها ولحمها وعظامها.. لكن السحنات الرخية والشاحبة ماتزال تكابر لإبراز الشهوة إلى الحياة.

منصور يتقزز من الذين فروا أو دفنوا أطفالهم أحياء، فهو كل مساء يركب فرسه ويعود من الغابة محملا بالنبق والبلوط ويعرف أن أبناءه كانوا مع عبد السلام يحفرون عن نبتة ايرني والخروب، ووريقات الخبيزى النادرة. كل الوجوه شحبت دون أن تجف، إلا وجه ولد المخزن وأخيه عبو الريح اللذين انتفخا مما يتاجران به.

حينما ماتت أبقارهما انتقل الريح الى دكالة واشترى قناطر من القمح ثم اكترى مع أخيه مجموعة من الزطاطة لإيصاله إلى مكارطو حتى يبيعه بما شاء.

اكتشف عبو الريح أن غالبية أهالي مكارطو أو الأعشاش أو القبائل المجاورة القادمة للشراء من رحبة ولد المخزن، لا توجد معهم أموال نقدية، فاستجلب عدلين إلى قبته، يأكلان ويبيتان عنده، اشتغلا عند الريح في تقييد الأراضي التي يقايضونه بها.

في أول مغامرة له، سيأخذ أربعة هكتارات بعبرة ذرة صفراء، ثم تواصل عمله وعمل العدلين القابعين في ظل القبة تحت كنف الريح وبعيدا عن الرياح المتقلبة؛ وتواصلت القوافل القادمة للمقايضة حتى جاءت قافلة لم يألفها الأهالي يركب فيها نصراني سيذيع بين الناس أنه مانيسمان التاجر الألماني الذي يشترك مع الريح في هذه التجارة.

استقر مانيسمان في قبة الريح الذي لم يكن له غير الذكور. زوجه من ابنة ولد المخزن، رغم المسافة العمرية التي تنيف عن الثلاثة عقود بين الألماني والزوجة الصغيرة، ووجد الناس، في مكارطو، الفرصة صريحة للتنفيس عن أحاديث الجوع والغلاء وأشكال الموت، فتداولوا الكلام حول زواج مانيسمان وقالوا أنه ليس زواجا موثقا ولكنه زواج متعة غير شرعي لإرضاء "لزعر" الذي لم يقبل كتابة عقد الزواج بالعربية، واقترح عليهم كتابته باللاتينية أو الألمانية أو يتريتوا قليلا.

بعد ذلك لم يعد أحد يهتم إن كانت ابنة ولد المخزن هي زوجة لزعر أم عشيقته أم جسدا مشتركا بين أبناء عمها عبو الريح.

يقول ولد المخزن للفقيه والثلاثة: "أنتم فقط.. خذوا ما شئتم من زرع وسمن بدون مقابل. لا نطلب إلا التقرب من قلوبكُم"، لكنهم يشزرونه. فيتوارى لأنه يعلم معرفتهم أن الزرع الذي يقايض به هو مسروق من مطامير أولاد حريز ودكالة، وهناك كلام كثير حول عصابات تسرق لصالح ولد المخزن وعبو ومانيسمان الألماني.

جلب عياد العشي من عند بعض قراباته بأولاد حريز والمزامزة مؤونته من القمح والشعير والسمن، فاقتسم ذلك مع سي عمر ومنصور وبنطاهر، وبعض ممن قايضوا بكل ما يملكون فلم يعد لهم شيء.

في ذلك الصباح من شهر أبريل خرج مانيسمان يمسد شعره الخفيف، الحنائي، وسط عبو وولد المخزن، وخلفهم العدلان الحاملان للدواة والأوراق المخزنية المصكوكة. لم يفتحوا الهري ولكنهم صاروا يتجولون وسط حديث عن آلاف الهكتارات المسجلة بإسمي عبو ومانيسمان ولما لمحوا رجلا، غريبا عن مكارطو مع ابنه، يقف منتظراً أمام باب الهري سأله الريح عن غرضه، فرد عليه بأسى بين:

- هذه رسوم ثلاثة خداديم ترس في حدود مكارطو مقابل عبرة شعير.

ضحكوا هازئين وصاح ولد المخزن في الرجل:

- ما هذا الغلاء أيها الشيخ، إن عبرة تساوي شهرا من الحياة.. أعطيني إياها أعطيك عشرة هكتارات.

لم يخطئ الفقيه سي عمر أمقار حينما أفتى بين الناس أن كل شيء قد تهدم.. السماء أجهزت على الطبيعة والأجسام، والمخزن هدم النفوس والأرواح.

آلمه كثيرا كيف تضيع الأرض وتتجمع بين الأعداء، فانزوى يتخيل أهل مكارطو مخاطبا إياهم:

الإحساس بالأرض ليست له مقاييس محددة داخل المشاعر.. بالتأكيد هذا شيء لا خلاف حوله واليوم أرى، والعياذ بالله، أن قطيعا من هذا الجيل لا يهمه من الأرض شيء ولا يستطيع أن يرويها بنقطة من عرقه المنهرق فبالأحرى بقطرة من دمه.

ليس يأسا. بل لوعة الأمل الذي يكبر فوق جبل مكارطو لأن هناك من يروي أرضنا بدمه فإن نفذ فبلحمه وإن نفذ فبعظامه وإن نفذ فبكلامه وأفعاله والله على كل شيء قدير.

العشي لا يريد أن أحكي أمامه أن جده هو الجد الحقيقي للشاوية سيدي ومولاي علي الشاوي، حينما أصبح قائدا في سنته الأولى ساومه كبار الملاكين وأصحاب المصالح بأن يأتمر بأوامرهم ويأخذ ماشاء من مال وأراضي وجواري، فقال لهم علي الشاوي وهو في أقصى غضبه وحكمته: (والحكمة لاتأتي في سلالته إلا مع الغضب) والله لو وضعتم الوطن ترابه كله من ذهب وشجره أعواد ند مشتعلة على يميني، ووضعتم على شمالي الشمس والقمر لن أتخلى عن الشاوية والتي هي من تراب وزمنها من نار.

العشي وابنه وكل من سيأتي من صلبهم سيقول نفس الكلام لأنهم يحسون بالأرض كما أحس الآن بكم وتحسون بي.

عاد الريح يفكر في جمع ايرني وبيعها كما يبيع الخروب والبريو لكنه استفاق

حينما اشتكى أحد المكارطيين، ولد المخزن والريح بكتاب إلى المخزن يقول فيه "إنهما سرقا الأرض وهتكا العرض ولا يخافان الرب الواحد الأحد ثم تحالفا بكافر أمرد"، فجاء الجواب بأنهما محميان ومخالطان لاسلطة للمخزن عليهما حتى ولو قتلا وهتكا وتحالفا.. وكل حي يدخل سوق راسو، هذا زمان راسي يا راسي.

- هل سمعت ببدعة المحمي والمخالط؟ قال الفقيه لمنصور وهم الأربعة وسط الغابة، من حين لآخر يقطفون أعواد الخروب للمضغ، والعشي يعرف التفاصيل لأنه يجوب الأسواق الملآى بالمحميين من طرف بعض الفرنسيين والإنجليز والألمان، وأيضا بالمخالطين للنصارى في التجارة والمال. يغمض عينيه ويروي لهم عن مجاعة كانت في هذه البلاد عام 1521 حيث دفع الفقر والجوع بالفلاحين أن باعوا أنفسهم للبرتغال بما يسد الرمق، فحملوهم رقيقا وعبيدا إلى بلدانهم وبلدان أخرى بأثمان باهضة.

- "دائما كان الآخر يستعبد البلاد والعباد ويتاجر في الكرامة والأعراض ويجد القلوب الضعيفة والعقول الخفيفة التي تساعده على تنفيذ جرائمه" . قال سي عمر بصوت ندي مشبع بالتباريح على أولئك العبيد الذين رحلوا، ثم يخمن بعدما يفتح عينيه في رجل - من ذلك الزمن - وقد حمل ابنتيه التوأم من أولاد سليمان بالمزامزة بعدما فقد كل قوته وبعد مساومة شيخ القبيلة في ابنتيه معا. فر نحو دكالة مثلما فرت من قبله زوجته إلى حيث لا أحد يدري الآن. وهناك باع نفسه لأحد البرتغاليين بشرط حمله إلى خارج البلاد، لكن البرتغالي كان يفكر بنفس إحساس الشيخ بخصوص متعة التوأم، فحملهم وحينما توسطت الباخرة المحيط، جردوا الأب من ماله وأوراقه ثم رموه للبحر المالح.

لا أحد يخمن أبدا في حفدة التوأم. في امرأة تدفع أولادها للموت حتى لاتراهم يموتون تباعا. فقيه أحل أكل لحم الميت مادام سينقذ روحا.. فهاجمت القبيلة كل المقابر القريبة والبعيدة بحثا عن دفين قريب العهد في قبره. فقيه آخر أفتى أن كل من تجد

قوتها وتضمن الحياة لأولادها عن طريق ثدييها فهو حلال. وكل هارب هو في حكم الميت الشهيد يحق لورثته أن يرثوه، وإذا ماعاد يوما فقتله واجب. وأيضا الذين ارتدوا عن الإسلام وتنصروا حتى يضمنوا خبزة يومية من المبشرين.

لن يخمن أحد في كل ماوقع وماسيقع، وفي الليالي التي يتمنى هؤلاء الجعاة ألا يطلع لها نهار.

كم من حروب وحصارات كانت ومازالت تنيخ بجراحها وآلامها في الوجدان والذاكرة... ومعركتان شامختان بالغبن تكسرتا، خسارة، في القلب بين معركة إيسلي وتطاون ومعارك المخزن بحثا عن مكوس قسرية بالقوة لملء خزائنه، تكمل مشهد حروب الجوع والمرض؟

رغم قصر قامته وليله فقد حلم الفقيه أمقار في يوم جمعة صلاة الإستسقاء **أن هناك رياحا قاهرة تزحف، ثم فجأة تتوقف خانعة أمام جبلين عظيمين سيدي نادر وسيدي نويدر كما يسميان، تحولا فجأة إلى خبز أحمر اللون... فهرعت كل القبائل تأكل دون شبع أو بسملة وحمدلة... وفي لمح بصر خاطف نفذ كل شيء، فتهقهت الرياح ثم قامت وزحفت.**

□ □ □

أزمان الخراب والبطولات القاتلة تتتالى، وعلى بواخر ثقيلة عاد وفد الحجاج بعدما مات نصفهم ودفنوا رميا في البحر وهو ما تزامن مع حركة المخزن بالشاوية تلتها، في أسبوع طويل، أمطار طوفانية جرفت ماتبقى من يأس، كما صاحبتها اضطرابات جوية أرعبت الجميع، ومكارطو التي عانت سنوات من الوحم الكاذب، داهشة من هذا الغضب المفضوح ومن الرياح القاسية على مدى ست ساعات إلى حدود آخر مساء يوم السبت من شهر ماي، فتوقف كل شيء، قبل أن يستردوا المشهد الذي

سقط ساخنا -مثل لقمة بادآز، كما يشبه ذلك سي عمر أمقار- في روعهم وصعوده إلى المخيلة حتى يركبوه في حكايات وشهادات.

ريح صفراء تتخايل غير مرتفعة، قادمة من جهة المزامزة، كأنها ضباب خفيف، يتقدم في اتزان معلوم بأقدام لامرئية، كما تعود دائما، وحده الذي يخمن في شؤونه. مر أمام أبصارهم فغشاها وواصل تقدمه لامباليا في اتجاه الأعشاش... وبعد ساعة سترعد السماء فتضطرب الريح الصفراء -كما لو أنها عجوز استفاقت مذعورة للفرار- وتحاول الهرب برائحتها الخانقة ولونها المرعب، لكن الأمطار تضغط دون إحساس، فتبدد المشهد أمام فرقعات وشنيارات نارية تبرق زرقاء بشكل متتال في السماء.

همس العشي لزوجته الفاضلة بأن هذا امتحان آخر يولد من الإمتحان الكبير الذي تحياه الشاوية.

نفس الشيء فكر فيه سي عمر الذي دخل قبته وأغلق بابها ونافذتها الوحيدة، فأظلمت، وجلس يقرأ القرآن بصوت لايخلو من بكاء وشهيق.

بعد ثلاثة أيام خرج ولد المخزن من بيته أصفر اللون، تقيأ ثم سقط، فأعادوه إلى فراشه وفي الغد مات، فلم يرض أخوه عبو الريح أن ينظر إليه أو يدفنه خوف العدوى، وإنما اكترى رجلين عاطلين وعدهما بعبرة شعير لدفن أخيه، وحينما دفناه لم يشأ الإيفاء بوعده بعدما عزت عليه العبرتان، ولما اتضح للرجلين كذب الريح قاما في الليلة الموالية وأخرجا الميت من قبره ثم رمياه أمام باب عبو الريح وهما يتفكهان بالقول أن عزرائيل جاءهما ليلا ووعدهما إن هما أخرجا الجثة سينتقص من عذابهما ما يساوي عبرة ذرة للواحد!؟

في الصباح كانت الكلاب قد خففت عن الميت ثقله فلم تترك فيه غير العظام، وتطوع، من الدوار، شيخ طاعن في السن لدفنه من جديد.

قال الناس إنه بوگليب لكحل، وقال آخرون هو الطاعون القاتل فلم يتمموا

تعليقاتهم حتى مات خلق كثير، وحمل الريح أبناءه وأبناء أخيه مع مانيسمان إلى سطات حتى تهدأ الريح ويصفو الهواء من هذا الفساد الثقيل.

في الشهر الأول لم يعد الرعب هاجسا، فألفة الموت أسرع إلى النفس من ألفة الحياة. جاء إلى مكارطو شيخ يدعي شفاء كل الأمراض، وتابعه الذي يسمي نفسه هارون يقول للناس إنه ولي صالح، كرامته هي من كرامات وخوارق الأنبياء... لكن لأحد كلمه فمر مثل نبي لاكرامة له في مكارطو... ثم جاء آخرون نزلت عليهم كرامات لاقبل لها بما كان وسيكون.

استمر الفقيه على حاله، يقف الليل طوله لتلاوة القرآن، أو مقرفصا وسط ظلام بيته، وبالنهار يعكف على غسل موتى حرب المرض الأسود دون خوف من العدوى، يتمتم بآيات ضرورية يقطعها من حين لحين بقوله "لاحول ولا قوة إلا بالله".

في صباح لايختلف عن باقي الصباحات، نهضت الفاضلة، فجرا، تحمل قدرا مليئا بالحناء، متجهة به نحو قبة الولي سيدي امحمد البهلول، على بغلة، خلفها عبد السلام. وصلت القبة في الظهيرة فلم تجد أحدا عكس ما كانت تعتقده. دخلت القبة ثم بكت طويلا وقامت تطلي الباب بالحناء وعبد السلام يتفرج صامتا.

وفي طريق العودة لم تفارق خياله صورة الولي الحنائي التي رسمها لسيدي امحمد البهلول فتمنى لو كان هو.

في صباح اليوم الموالي، أخذت الفاضلة الروابة وأفرغتها في الشكوة ثم شرعت تنخض دون أن تستعمل النار الهادئة قرب شكوتها.

عبد السلام ولالتهم ينتظران، كعادتهما، اللبن.. لكن الفاضلة حينما توقفت وقالت "باسم الله" وهي تهم بفتح الشكوة للتأكد من اكتمال النخضة شهقت ثم بسملت مرة أخرى.. وشاع في كل مكارطو أن شكوة الفاضلة تحولت كلها إلى سمن من ذاقه شبع وتطهر من الأمراض.

□ □ □

سبعة أشهر ونصف من الحصاد المر، أعلنت السماء هدنتها مع الأرض، لكن المخزن عاد في الصيف بضرائب يتسابق مع الجراد القادم من السماء والجهات البعيدة، فالْتهم المحصول ولم يجد المكارطيون غير تصيده وشيه على النار السعير.

عاد الصفاء، وعمرت السماء غيومها، وبدا أن أهل الشاوية والسماء اتفقوا على نسيان الماضي، وحده المخزن الذي سيربط الماضي بالحاضر ويرجع إلى عقوده الراشية.

الريح، بدوره، عاد إلى هربه وعاداته دون أن يستقدم أبناءه الذين ألفوا جو سطات القريب من الحضر، وعاد الفقيه يحتج على عياد في إدخال عبد السلام إلى المسيد ليتعلم غسل الميت ودفنه، وعاد الخروب إلى أشجاره كما عادت ايرني، نبتة القيامة، إلى تنفس الصعداء تتلذذ بلا مبالاة الآدميين وتقززهم منها.

الأطفال أمام الفقيه على الحصائر يقرؤون بصوت جماعي، ألواحهم في أياديهم، خشبية مطلية بالصلصال.

لالتهم وحيدة، في الزريبة تلعب بأربع حشرات سوداء تنظم لهم سباق البخوش فيما خرج عبد السلام بالبهائم حتى يرجع العشي من السوق محملا باللحم والخضر والفواكه والسكر وبعض الحلوى والملابس للفاضلة ولالتهم.

الجميع يحاول أن ينسى.. مكارطو الآن هادئة إلا من الصخب العائد مع عبو الريح المحاط بأولاده، وأولاد ولد المخزن الذين صاروا يسمونهم بأولاد المخزن اختصارا في النطق وتوسيعا للدلالة والمعاني الحية.

اقفلوا الهري وبدأوا في رسم حدود أراضيهم بالشاوية، وكان كل من يعترض سبيلهم يتعرض للعقاب الذي يصل إلى القتل والنفي، وشوهد عبو الريح إلى جوار مانيسمان على بغلتين يتجولان وراء رجال أقوياء يهرولون على أرجلهم أمامهما.

عبو الريح، باستمرار، يلبس فرجية بيضاء متسخة الصدرية والأكمام، أما بلغته القديمة والمرقعة فهي أصغر بكثير من أن تضم قدميه المفلطحتين، مثل وجهه العريض،

وفمه الدائم الإنفتاح على بسمة بلهاء بلون طربوشه الذي فقد حمرته.

حاول في لحظات محدودة، أمام أهالي مكارطو، حينما يغيب الثلاثة، أن يرسم حدود تاريخه فيقول بأن جده كان قائدا كبيرا على كل بلاد الشاوية قبل قرن ونيف من الزمن، يدعى القايد المنصري؛ ثم تحدث بخيال أوسع من فمه المشتت، وأبرد من الرذاذ الذي يتطاير من لعابه الزلال، عن الشتات الذي طال سلالته والهجرات التي خاضوها من المزامزة إلى الأعشاش إلى مكارطو، والأسماء التي غيروها في كل حين من المنصري إلى الشوفاني إلى الريح.

يستهيم عبو الريح في البحث عن مسارب عاطفية تبرز الظلم الذي وقع عليهم خلال مسيرة ثلاثة أجيال لاستدرار عطف المكارطيين الذين يعرفون جيدا أن عبو الريح صار يضرب به المثل في الخواء والكلام الباطل.

أبناؤه الأربعة أكثر حزما من أبيهم يشبهون عمهم ولد المخزن في الدهاء والتقلب، فيما جاء أبناء وبنات ولد المخزن يشبهون عمهم الريح.

وقف الفقيه سي عمر كما لو كان قابضا على الجمر مقاطعا منصورا الذي كان يحادث الفلاحين وهم جوار الحائط الخرب:

– في كل مرة كنت أنسى. منذ ثلاث سنوات وأنا لا أنسى شيئا إلا هذا الحائط الذي أفكر فيه طول الليل وأعزم محادثتكم فيه صباحا لكن الشيطان نعلة الله عليه يسرق المعنى ويترك الخراب.

(لم يقاطعوه، ولكنهم تهيؤوا لسماع ما كان ينساه كل هذه المدة) لابد لنا من هدم الحائط وبناء قبة لنا جميعا نفرشها ونمولها بالطعام تجمع شتات أحاديثنا.

تكفل الفقيه بجمع المال والشروع في البناء بيديه، يساعده شخصان في نقل الحجارة ومعاونته، ولما جاء عبو الريح حاول أن يجرب فيهم خطبة هيأ كلامها ويقول أنه يتطوع لبناء القبة..

- أبدا لن نقبل الإجتماع في قبة تبنى من مال الريح.
وأضافوا إلى مسامعه كلاما عن الحرام والحلال أحرجه فتبين أنه لم يهيء ردا لمثل هذا الإحتمال البارد على قلبه.

□ □ □

عاد البراح في الصباح الموالي يعاود تباريحه القديمة في أهالي مكارطو بأن عبو الريح صار محميا دوليا لفرنسا وألمانيا وبريطانيا، ولا أحد يحق له محاسبة الريح، ولو كان المخزن الكبير نفسه.

ضحكوا من الردود الصبيانية للريح، كما فقهوا للعبة التي يلجأ إليها بعض ممن خافوا على أملاكهم التي جمعوها بالنهب والإغتصاب وحينما أحسوا بضعف المخزن الذي لم يعد قادرا على حماية نفسه، ارتموا في حضن الأجانب. وسيترك عبو الريح ابنه البكر، سعيد الريح، يدخل ضمن المخزن رابطا كل صلاته مع رجالات من كل طين، فيما تفرق الآخرون من أبنائه وأبناء أخيه في كل الشاوية يحرسون أملاك الريح.

رياح باردة تتهادى، غير مبالية، مجروحة في كبرياء وهمي مثل كبرياء أحلام نساء مكارطو وقد خرجن نحو الغابة للحطب.

قالت الأولى: حلمت أننا خرجنا إلى الغابة فطاردتنا الضباع وقطعت ثيابنا.

قالت الثانية: وقمت إلى الكنيف ورويت له الحلم؟

عقبت أخرى: ماذا يريدون منا.. الله يسلط علينا الجوع والمرض، والمخزن يسلط علينا أحمد بن موسى والقواد والأجانب.

ثرثرة عادية تنساب خلال عودتهن وهن سرب يتتالى فرادى غير متباعدات، كل واحدة تحمل فوق رأسها حزمة عالية من الأعواد مربوطة بالقنب.

في الزريبة، وضع الفقيه فزاعة على هيئة إنسان ألبسها جلبابا قديما له ووضع

على رأسها طربوشه الأحمر، فخاطبها:

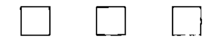
أبدا، أيها السيد. ولدنا أحرارا. لن نكون عبيدا. نحن محاربون منذ الأزل. خسرنا كل المعارك وربحنا الحروب وسنظل.

أسميتمونا بلاد السيبة. سموا ماشئتم، واكتبوا ماشئتم، فليس لنا إلا أن نقف مثل هذا الجبل المكارطي الضخم.

رفع يده فأخرج سيفا ثقيلا غير مستعمل، بدا معه الفقيه سي عمر متعبا من حمله خصوصا وهو يتهيأ لمبارزة الفزاعة - متماهيا مع المشهد الذي يتخيله - يتحرك في كل الإتجاهات بقصره المفرط، من حين لآخر يرمي بسيفه ثم يتراجع ويدعو الفزاعة للمبارزة فيسميها حينا بالمخالط وحينا آخر بالمحمي ومرة بالمخزن، ومرات بأسماء كثيرة وأجنبية، عبو الريح الكافر بنعمة البلاد. أولاد المخزن المنتشرين كالجراد والمسامير في النعوش القادمة.. المنصري، الشوفاني، مانيسمان، دافيد، الزاكوري، أحمد بن موسى الذي مات وخلف مقبرة من الشهداء، ليوطي وبواخره. والجنرالات الذين يريدون تجريب أحلامهم المهزومة.

تعب حتى سقط، بعدما قطع الفزاعة، فقام بعرقه الغزير إلى القبة حتى ينتظم تنفسه المشتت، ثم صب عليه سطلين من الماء البارد ونام قليلا قبل أن يخرج إلى أصحابه في جلوسهم الحميمي كل يوم.

جو عام يوحي بالهدوء في فصل ربيعي واعد، سي عمر أمقار أوقف دروسه في الفترة الزوالية حيث يمارس الحجامة في رؤوس الأطفال والرجال حتى يخفف من شعورهم ويجدد نشاطهم مثلما يفعل على مدار العام مع الأطفال الرضع في اليوم الأربعين أو خلال فصل الصيف حينما يحمل مقصه الكبير لجز صوف الغنم في يوم الدزازة.. يعطي الإشارة فقط حتى يبارك الجز والكثير من الأشياء الأخرى.



كُلُّ الصباحات لا تتشابه، لأن هذا الصباح سينتقل الخبر فيه سريعا عن كنز استخرجه فقيهان سوسيان من منطقة سوس البعيدة... فتناقل الناس الدهشة وهم يسمعون بالكنز المحفور من قبري وليين منفيين في أقصى مكارطو، سيدي الهادي ولالة هنية، جاءا قبل قرن ونصف من قبائل أولاد بوزيري بعد قتل أبويهما غدرا واستقرا هناك... كانا في سن قبل الرشد، علاهما الحزن والذبول، جلسا فوق ركام من الأحجار وبقيا يتعبدان نهارا وقسطا من الليل في ذلك العراء وانتبه إليهما أهل الدوار فتعجبوا من هذين الملاكين.. وازداد عجبهم حينما كانوا يجدون ما يأتون به لهم من أكل وشراب كما هو لم يمسساه فقيل لحظتها أن خادما من خدم جبرائيل يأتيهما كل فجر بعنقود من العنب وقطعة من الشهد.

شهر واحد وماتا فتم دفنهما في مكانهما ونسيهما الجميع حتى حفر السوسيان عن عظامهما الملائكية التي تحولت إلى ذهب... ولم يخمن أحد إلى أي شيء تحول صدرهما العامر بالضيم؟ تحسس عبو الريح رأسه الأقرع وفكر جديا ثم أشاع بأن الذهب هو كنز خلفه جده القائد ولن يتنازل عنه، فجهز تسعة عشر فردا من أتباعه على خيولهم وأشار لهم باقتحام سوس والإتيان بالذهب وقتل الفقيهين.

مر شهر لم يعد أحد من جنود الذهب فتاهت الخيالات في الذين أكدوا أنهم أبيدوا عن آخرهم وشوهدت خيولهم تباع في الأسواق، وآخرين قالوا بأنهم تزوجوا هنالك وأصبحوا من الأثرياء فيما أشيع، وبسرد بليغ، أن الفقيهين السوسيين بسحرهما الأسود والأحمر استدرجا الفرقة نحو كهف لا يستطيع أحد ولوجه، ثم مسخوهم إلى حجر أسود هم وخيولهم.

عبو الريح هواجسه تتضخم، في وحدته أو أمام عائلته خلال نومه المليء بالكوابيس والصراخ، أو شراهته في الأكل من حين لآخر وبعد كل وجبة يشعر برغبة في البكاء والعطش معا.

تردد أمقار طويلا في ذلك الفجر الصامت ثم حسم الأمر واتجه إلى بيت عبو، دخل فوجد الجميع يبكي على الريح الذي مات قبل منتصف الليل بقليل فنادوا على الفقيه يغسله ويكفنه ويدفنوه في صمت.

وضع سبابته وإبهامه على صدغه، ثم عرقوبه، فطلب الماء الساخن، صبه على وجه عبو وصفعه فاستفاق وهو يعطس، وتبين لأهله أنه عاد إلى الحياة بعد غيبوبة هادئة... وتسرب الخبر في الصباح فلم يصدقه أحد وحينما سألوا الفقيه كان يقول بأنه لا يذكر شيئا من هذا القبيل وبعد خمسة أيام استنفروا سي عمر لغسل شيخ ميت... ولما غسله وكفنه وأمرهم بحمله إلى المقبرة صرخوا في وجهه "كيف أحييت عبو بعدما شبع موتا ولم تشأ أن تحيي ميتنا نحن؟!" كاد أن ينفجر وينقطع نهائيا عن أداء خدماته كلها لولا تحول الأمر إلى فكاهة.

كل يوم سبت يخصصه صباحا للكي بقضبان حديدية معقوفة من الرأس قليلا، يضعها في كانون أرضي حتى تحمر فيرش رأس القضيب اللاهب برذاذ تفاله المبارك ثم يشرع في الكي خطفا، بالنسبة للرجال والنساء. إما في الرأس للشاكين من آلام الشقيقة والدوخة أو في المفاصل للذين يعانون من آلام المفاصل والبرودة، أما الأطفال الصغار فإنه يكوي رؤوسهم كيا خفيفا بعود **تافغا**... وبين الحين والآخر يشير لنوع من المرضى ببعض الأعشاب ومقاديرها.

أما زوال السبت فيخصصه للبهائم كيا وفصدا للجمال... وهي كلها أعمال يتحملها سي عمر أمقار بصدر رحب لايشتكي من كثرة المهام ولكنه يضيق من بعض الجهل والأسئلة القاسية.

اقترب من عياد يبحث عنده عن خبر حول ما يجري من حروب وشائعات تتوالد وتتخصب:

- قدرنا أن نحيا بقضية لانطهرها إلا بالدم. (قال الفقيه لعياد العشي).

- نحن نحيا في جنة هجرها الله...

- استغفر مولاك، آعياد، لاتجعل مايقع، يدفعك إلى العصيان، إن الله لاينسانا أبدا.

- نعم. ولكنها جنة مهجورة من العدل. نفس الشيء يجري منذ... منذ متى؟!

- أنت تعرف الجواب.

- ... هم عياد بالكلام، ولكنه اكتفى برفع يده وأنزلها في حركة يمكن للفقيه أن يترجمها بما شاء.

الأرق يتكثف على ملامحه مع دخول شهر أبريل وحزن خفي على فراق ابنه عبد السلام الذي أرسله إلى الدارالبيضاء عند عمه سيد الساهل مع جماعة من التجار المكارطيين.

عاد فرفع يده وتركها. لحظة إحباط مفاجئ تنتابه ويتشبث بتذكره أن سلالة الشاوي الكبير لابد أن تستمر قوية أو تموت نهائيا. هذا اليأس العابر يأتيه كلما تذكر سيد الساهل البعيد في حي التناكر وابنه عبد السلام الذي لم يصلب عوده بعد، وأبناءه الذين ماتوا وهم ملائكة لا يدرون من تاريخهم شيئا.

- الملائكة هي التي ستطهر قضيتنا.

رد عياد العشي متأخرا. وأنزل يده التي أشبعها الأرق ثقلا في الحركة، ثم أغمض عينيه ونام في أقصى القبة.

II

شـامـة.. مـاذا أقـول للزمــن؟

«هذه الأرض المهجورة.. حجرها كحل وترابها
تبر، وماؤها عسل، لكن أهلها ملائكة وشياطين».
عبو الريح

استفاق عبد السلام من نومه في اللحظة التي أحس فيها بتوقف الحمار، ووجود عمه سيد الساهل قربه ضاحكا من نومه في عين الشواري.

أنزله بهدوء وهو يقبله ويسأله عن والده وباقي أفراد أسرته، وعن مكارطو والأعشاش والفقيه وكل من خطر بباله؛ ثم ينشغل عنه قليلا مع حامله.. فانصرف عبد السلام يتأمل الحي المسمى التناكر القريب من باب المرسى بالسور الجديد المبني من تراب أحمر ممزوج بحصىً، به ثقوب متعددة تخترق عرضه الذي يصل إلى نصف متر، يحوط بيوتا صغيرة وقصيرة العلو من التراب، بداخلها نوايل من قصب وتبن وتراب يرسم صورة بؤس متسع في حي التناكر الضيق. وحدها رائحة

البحر والحوت والريح تسعى لتغطية تهدلات الزمن هناك.

زنقة ضيقة، يجيل بنظره فيها وعمه يحادث أحمد الخلطي ويحثه على الدخول، لكنه يعتذر لأن الزمن لايرحمه ولابد من رجوعه خصوصا بعدما سمع أثناء قدومه أنباء لا تبشر بالخير.

دفع سيد الساهل الباب وأمر عبد السلام بالدخول ثم سار مع الركب دون أن يعلم أهل بيته بهذا القادم من مكارطو.

أم وخمس بنات جالسات أمام كوم من القمح، بأياديهن الخفيفة يعملن على تنقيته من الزوائد. البنت الكبيرة تهيء الرحى، أما **شامة** ذات العشر سنوات فقد تكفلت بحمل ماتمت تنقيته إلى فم الرحى المفتوح، ومن حين لآخر كانت الأخريات يضحكن من شامة التي اختارت هذا الدور الحركي؛ وسط سكون الجميع توقف كل شيء، البنت الكبرى أدارت الرحى دورة هائمة ثم أرجعتها فيما تجمدت حركات الأخريات وتوقفت شامة تلتقط أنفاسها مثلما يلتقطن هذا الطفل الذي طالما حلموا به أخا يحمي شغبهن في حي التناكر.. فجاء ابن عمهن المكارطي بعينيه المفتوحتين على سعتهما وطربوشه الأحمر الذي استقدمه له والده من مراكش مع جلباب رمادي قصير يبدو أصغر من سن طفل في التاسعة من عمره.

عانقوا ابن عمهم باستثناء شامة الواقفة إلى جانب سطلها، استعادت أنفاسها ثم التفتت تلتقط المشهد بذهول الى حين دخول والدها وهو يحمل معه شرُكة حُوت طرية هيأوا لها المجمر والشواية احتفالا بعبد السلام.

في الصباحات ينهض سيد الساهل باكرا قبيل الفجر، وأحيانا كان يسهر الليل كله داخل البحر ولما سأل الطفل ابنة عمه شامة قالت له إن أباها يعمل صيادا في البحر.

شامة تقوم في السابعة والنصف يوميا، باستثناء يومي السبت والأحد، تلوي ضفيرتها وتهيء خبزها الذي تضعه في محفظتها الحاملة للوح والأوراق والقلم والدواة

ثم تتوجه إلى المدرسة التي أنشأها اليهود لابنائهم وأبناء المسلمين من أعيان "أنفا"، وقد استطاع سيد الساهل أن يلحق شامة بالمدرسة بعد توصية من رئيس الجالية اليهودية، وهو يوميا، يقدم له، سلة من الحوت المتنوع.

شامة تعرف القراءة والكتابة، وتعرف اللعب يومي السبت والأحد، تخرج مع عبد السلام إلى السور. تراقب والدها في المرسى على زورق مصبوغ بالأحمر والأخضر كتبت على إحدى جنباته بخدوش مرتبكة قريبة من الحمرة "شامة"، وفي وقت محدد يعودان معا الى البيت يستبقان سيد الساهل لإخبار أهل البيت.

الأم وبناتها منشغلات باستمرار مثل دجاجات مرحات، يكنسن ويطبخن ويأكلن ثم يضحكن من أي كلام يقوله ابن عمهن، ومن حين لآخر يتذكرن ما قاله عبد السلام في اليوم الثالث من قدومه: *ستصبحن بعد سنة سمكات من كثرة ما تأكلن من هذه المخلوقات البحرية.*

السور من تراب وحصى، حصن ضخم يفصل البحر والمرسى عن السكان الذين اختاروا بناء النوايل وبعض البيوت الصغيرة المتزاحمة، لاتفرقهم غير زنقات مترية وضيقة جدا، وداخل هذا الفضاء المشدود، باستمرار الى رائحة البحر والطل، ينتشر الفقهاء جوار العطارين بالأعشاب والوصفات المختلفة للأمراض القديمة والطارئة، وأيضا باعة الأثواب وباعة السلع والزرع والملح. كما يوجد حانوت صغير رسمت عليه صورة مفتاح. اشتهر صاحبه بالسمسار الذي له القدرة على التوسط لبيع الأراضي للقادمين من البوادي من عند صاحب الأرض الذي له حظوة خاصة جدا عند المخزن.

شامة المتخايلة، سعيدة على الدوام، تحب أن تجري كثيرا، حينما تتعب تتحول خطواتها إلى نوم خفيف أو حلم يمشي. في عينيها سواد روحاني يوهم أنه كحل كثيف رص بإتقان من ثم تنطلق نظراتها البارقة في اللاتجاه خافتة

ملونة لكنها عامرة باندهاش ساخر، وبراءة مطلقة.

□ □ □

شهران مرا على مجيء عبد السلام الذي ألف المكان، حاول تعلم الصيد بالقصبة مع الحوت بدل الفخاخ والعصافير، لم يجهد نفسه كي يفكر في المقارنة بين الأشياء.. يتأمل في القصبة وفي كلام عمه سيد الساهل الذي أنذر كل عائلته كي لايخرجوا ابتداء من ذلك المساء.

التفت عبد السلام نحو شامة، فاستطرد والدها.. وأنت أيضا ياشامة. فلم يسألوه ولم يتكلم إلا بعد مرور ستة أيام روى لهم أن الفرنسيين صنعوا بابور البر من المرسى إلى مقلع الحجر وجاؤوا بلباس الجنود الغزاة.

الظهيرة فجوة مناسبة لتغذية فضول عبد السلام، يخرج متسلقا السور، ينظر إلى ذلك الشيء الذي يمشي وحده دون أن تجره البغال؛ الأبخرة وحدها صاعدة من رأسه الحديدي، وله طريق حديدي، واحد للذهاب والإياب.

يقفز عائدا بسرعة يحكي للبنات وزوجة عمه عن مشاهداته، ويفكر في اختزان ما رأى حتى يرويه لمكارطو، أما سيد الساهل فلم يعد مثلما كان وإنما صار أكثر حزنا وتيهانا، يتحدث إلى زوجته عن الكفار وعن غضب الله وعن البحر الذي بدأ يطرح الحوت ميتا، وأيضا عن بعض البحارة الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الجنود الغزاة.

قام كعادته في الفجر، مدد السجادة أمامه في اتجاه القبلة ثم صلى طويلا فيما تسلل عبد السلام إلى محفظة شامة وأخذ يرسم في دفاترها ويلون... بابور البر، سنارة بطعم في شكل فخ حديدي، الدجاجات الثلاث ثم ابنة عمه شامة وهي تتحسس اللامرئي كما لو تسعى إلى القبض على رائحة الملائكة وهي تتجول قربها دون أن تراها.

طرق خفيف، إثره يدخل سيد الساهل على ابن أخيه، ينظر الى رسوماته

فيضحك حينما وجد صورة ابنته المرسومة وقد وضع لها عبد السلام لونا أحمر في خديها وحبرا رماديا على شرودها.

- سأزوجكما لما تكبران، كن رجلا مثل أبيك فقط.

طأطأ، ثم وضع الأقلام في هدوء ورفع بصره إلى عمه فلاحظ عليه احمرارا بينا.. بادره قائلا:

- أريدك أن تذهب غدا في الفجر إلى مكارطو، وتخبر عياد وبنطاهر ومنصور بأن سيد الساهل يقول لكم: "الغزاة دخلوا"...

أعاد عليه الجملة أكثر من مرة حتى حفظها ثم تركه يهيء نفسه وخرج إلى فراشه بعدما حمل شامة بين ذراعيه إلى جواره، وأخرج قرآنا كان قد اشتراه من أحد الحجاج العائدين فوق الباخرة.

فتحت شامة عينيها، فمسد شعرها وقبلها ثم طلب منها أن تقرأ له آيات من القرآن بصوتها الذي مازال طريا. عبد السلام من غرفته وهو يستمع إلى همس شامة، تذكر فقيه مكارطو، سي عمر أمقار، والأطفال الذين تعلموا على يديه مثل هذا الكلام. وأحس أيضا بأن شامة هي عصفورة يحب مشيتها وصوتها وخجلها ودفاترها وألوانها وضفيرتها السوداء.

قال في نفسه: سأقول لعمي أن يدخلني المدرسة مع شامة.

قال في نفسه: لا، وإنما لأبقى بجوار شامة ابنة عمي.

سأل الأب ابنته بخطاب ندي: أتحبين أباك أم البحر؟

تبسمت شامة وقالت: أنت والبحر واحد (ثم ضحكت).

عاد الأب يسألها: أتحبين الشاوية أم الجنة؟

- شامة أحست بارتياح غريب وهي تقول: الشاوية هي الجنة يا أبي.

- شامة.. ماذا ستسمين أطفالك؟ قال يناوشها بالسؤال.

(غطت وجهها بيديها وظلت صامته)

- أنا أعرف أنك تحبين اسم عبد السلام... طوير الجنة.

انتفضت من فراشها في حركة مناوشة. فزمت بيديها لم والدها الذي انفجر ضاحكا من انكشاف هذه المؤامرة الصباحية، ومن النوم الذي طار فجأة إلى غير رجعة.

في منتصف النهار دخل سيد الساهل وخاطب زوجته كي تتأهب مع بناتها للسفر إلى مكارطو، فلم يفهموا، ثم خرج؛ في الليل لم يعد كعادته وإنما سمعوا صراخا وأصواتا قاسية، فتناهى إلى سمعهم صوت سيد الساهل، وعاد عبد السلام يقول لزوجة عمه أنهم قلبوا بابور البر علامة الفساد، وقتلوا تسعة من الأجانب...

علا الصراخ وأطلقت عيارات نارية من بنادق جنود فرنسيين مذعورين دخلوا المرسى محتمين بالفراغ. أما الساهل ومن معه فقد طاروا يتجولون داخل السور وفي المرسى كحكام جدد، ثم جلسوا يفكرون وسط ذلك الظلام ويناقشون الأمر.

- سيأتي الفرنسيون ويمسحوننا من أرضنا.

- لغة الجبن تسيطر عليك.

- والمخزن.. بدوره قادم لمحونا.

- بل مكارطو واولاد حريز والمزامزة واولاد سي بنداود واولاد بوزيري... قادمون، فقد أرسلنا أكثر من مرسول وبراح.

تواصلت نقاشاتهم عنيفة بين امتداد الأحلام وانحسارها، وقبيل الفجر وصلت خيول الشاوية بفرسانها، فأخبرهم سيد الساهل بكل شيء وقد استعاد حماسه بتحركات الفلاحين الملآى بالقدرة والرغبة في الدفاع عن الثغر البحري للشاوية، واطمأن لقدوم بنطاهر وعياد ومنصور ورجال شامخين بنور البطولة في ذلك الظلام، على خيولهم يتأبطون بنادقهم الطويلة.

انزوت شامة في زاوية لوحدها فيما البنات الأخريات وأمهن جلسن صامتات

خلف منسج يتعاقبن على إدخال خيوط الصوف الملونة أفقيا ، الواحدة تلو الأخرى، والضغط برأس الصبار حتى يستوي نسيج البطانية. بالتأكيد كما يخمن السكون الثقيل، عملهن ليس إلا إيهاما لشيء غير محدد بدواخلهن... أما شامة فإنها في زاويتها أخذت أقلامها وأوراقها البيضاء وبدأت ترسم المنسج وأخواتها بدون ألوان... ولما انتهت أخذت ورقة أخرى لتلتقط المشهد الصباحي حينما كان عبد السلام جذلانا بقدوم والده عياد بعدما كان حزينا إثر منعه أول أمس من الذهاب إلى مكارطو لإخبار أهله. وحينما هم بالخروج لملاقاة عياد وأعمامه لم تتركه الأم، فانزوى يداري دمعه، وبنات عمه يخنقن ضحكاتهن في مشهد الضيم الذي ركب عبدالسلام فجأة. ثلاثة مشاهد لنفس الملامح بالحبر الأسود، وبعياء باد على جسد العصفورة شامة، أخذت الصور ووضعتها أمام عيني عبد السلام. فلمحها ثم حول بصره إلى وجهها الذي شمعه الحزن ببياض شاحب، ورغم الخجل الذي يصيبها ، فجأة، في مثل هذه اللحظات المنفلتة من مألوفية اليومي.. فإن الإحمرار المعهود لم يقدر على إذابة الصمت.

الحركة المشتركة بين القبائل يقودها الثلاثة من مكارطو إلى جانب الآخرين، لم ينتظروا طويلا كي يهجموا على المرسى، ففر من تبقى من جنود فرنسيين إلى خارج السور محتمين بالسفارات الأخرى ومبرقين مرة أخرى لبلادهم. قبّل يد عياد فاحتضن ابنه عبد السلام الذي تحسس الدفء فحاول الكلام لكن والده ضمه إليه مرة أخرى فلم يترك له فرصة الحديث. أدرك سيد الساهل الخيط الجميل الذي يربط بين الأب وابنه فتدخل مخاطبا عبد السلام:

- ها قد جاء أبوك وأعيان مكارطو وأبطالها ليخطبوا لك في ابنتي شامة.

انفجروا ضاحكين فلم يحتمل الطفل المشهد وقفزت من عينيه دمعات حارة لم تكن في الحسبان، آنذاك قال عياد العشي:

- نعم آسيد الساهل، وبكل جدية أنا أخطب شامة لإبني، ومهرها لن يكون أقل

من المرسى والسور وأنفا كلها.

تحول الحديث إلى كلام جدي، فانسحب عبد السلام وصار كلام الخطبة، الذي ابتدأ مزاحا، شيئا حقيقيا، فقرأ الثلاثة الفاتحة مع سيد الساهل ونادوا على أم شامة كي تزغرد، وحينما علمت البنات بالخبر لم يخنقن ضحكاتهن وأسرعن إلى القبض على دجاجة، ألبسنها ثوبا أبيض. أما شامة فإنها غير معنية بالحدود بين الجدي والمزاح في كل هذا... ترسم لوحاتها بالأبيض والأسود.

أربعة أيام كانت جنود الريح فيها عاجزة، تزداد غيظا من الحكام الجدد القادمين من الشاوية، ينامون فوق خيولهم، والثلاثة يقودون الحركات، يلبسون البرانس والجلاليب الحريرية والبلاغي البيضاء مثل حكام نور انيين جاؤوا للدفع برقعة الظلام بعيدا عن مساحة الزمن.

□ □ □

غشت فصل لوحده عامر بالمقابر، الصهد يصفف متاريسه وينفخ رياح الشرقي والمفاجآت... وفي فجر اليوم الخامس اقتربت باخرة فرنسية، مثل الدهشة، لم تنتظر طويلا، فقنبلت السور والحي.. كرة حمراء ورمادية وبدون لون خرجت من فم حديدي مثل لسان قذر يتوسط الباخرة في اتجاه السور والحي ليلحس كل شيء، وقذائف الملينيت الإشتعالية زادت من التهام وتدمير البيوت المبنية من الطين والتبن، وهي الفترة التي نزلت فيها فلول الجنود الفرنسيين ببنادقهم وخناجرهم تهاجم من جهة البحر، فيما تكفل جنود الريح بمحاصرة الفارين من جهة البر.

شامة ارتعبت، وصارت تبكي وسط فوضى داخل البيت الصغير، اقترب منها عبد السلام، وعبرها خاطب الأخريات مطمئنا:

- لا تخفن، أبي وعمي وبنطاهر ومنصور وغيرهم يحموننا...

لم ينه كلامه حتى اتضح حجم الانفجارات فسقط جزء من المنزل جهة المنسج.. آنذاك خرج الجميع، وكل سكان حي التناكر وأهل السور مسرعين بالفرار مخلفين وراءهم آخرين تحولوا الى حطب.

أبصر سيد الساهل أهل بيته وضمنهم عبد السلام، فدفع بهم إلى خارج السور وصاح منصور في الآخرين كي يخرجوا نحو مديونة، وحاول عياد أن يخطب والحرب قائمة، باسم الشاوية، لكن الجياد نافرة من أصوات البنادق ودخان النوايل والأجساد المحترقة.

عاد فصمت لأن مدينة ملحمية تموت، مشهدها الفادح في شهوة التطرف أعلى بكثير من أي كلام مهما كان.

التفت بسرعة نحو مشهد أدنى في نفس الساحة، براح الريح يصيح باسم جنوده في السكان الناجين من نار ملحمة الموت: "*من دخل منكم محلة الريح فهو آمن*".

توزع بنطاهر ومنصور وعياد فصاحوا: "الخديعة مبيتة يا أهل الشاوية. دسيسة الريح المعهودة، لا تدخلوها". لم يسمع أحد للتحذير، وعبد السلام ركب خلف عياد، والده، والناس صدقت براح الريح فدخلت المحلة المسورة بجنود مخزنيين، أما سيد الساهل فقد تاه يبحث عن زوجته وبناتها وسط الفارين، لكن الموت كان منهارا يدفع في الناس بدون هوادة، مسعورا يهطل منه عرق ملتهب، مرعوب أن يتخلف سكان حي التناكر الذين دخلوا مدفوعين بهوى الموت، والساهل يبحث في وجوه الأحياء والجثث. وفي لحظات صد وهجوم، خرج جنود الريح من المحلة بعدما أحكموا الحصار على الداخلين، آنذاك أفرغوا كل رصاصهم ثم أشعلوا النار، وجاءت القنابل محسوبة لتقتل الآلاف التي صدقت دسيسة الريح، وفجع الآخرون وتيقن الساهل من صوت زوجته وبناته، سقط من فوق فرسه ثم عاود النهوض، فأردفه منصور وراءه وتراجعوا نحو مديونة بالفلاحِين والسكان المتبقين تاركين وراءهم نكسة حامضة التفت إليها عبد

السلام فرأى دخانا متصاعدا يكمش على أرواح كثيرة من بينها روح شامة.

هل للقيامة غير هذا الخطب؟

اندفاع الهرب من تهدمات الموت المتساقط والدسيسة تنصب فخاخها للعزل الذين ارتموا نحو باب محلة الريح، اعتقادا منهم أنه سياج الأمان.

شامة تأخذ بتلابيب أمها مثل أخواتها وتبكي.. لا تعرف لماذا تذكرت وسط هذا الاندفاع ما قاله عبد السلام وهو يشرح لها طرق صيد العصافير... طريقتان للصيد بالفخ.. أن يكون الفخ مدفونا تحت طبقة رقيقة من التراب أو يكون عاريا مكشوفا، وفي كلتا الحالتين كانت الحجال تأتي إلى حتفها.

لماذا تذكرت بشدة أن الجنة هي الشاوية. لا، الشاوية هي الجنة؟

كيف نتذكر الماضي دائما، وحينما يتعلق الأمر بالجنة والشاوية نندفع نحو المستقبل؟

استمر الإندفاع.. كل واحد بحدس الحياة وعشقها أراد الرجوع لكن من هي تلك الأيادي الخفية، مثل رياح ثقيلة، التي تدفع الجميع نحو الأكيد المنتظر؟

- أين أبونا. قالت الملائكة.

- وأين سيدي وزوجي. تساءلت الأم بدورها.

هل لغير هذا الحطب الآدمي من قيامة أخرى؟

سيد الساهل انخرس، وعبد السلام بكى على زوجة عمه والبنات، أما الثلاثة فإنهم لم يفكروا إلا في غدر الريح وجنوده لهم باستمرار.

في الفجر الموالي عاودوا الهجوم لسبعة أيام فقدت الحركات، فيها، الشيء الكثير أمام تحالف الريح مع الفرنسيين وبعض اليهود، وفي كل أوقات النهار والليل يتم الهجوم من كل الجهات فأصيب بنطاهر في كتفه الأيمن، ومات منصور في اليوم السابع خلال حركة مسائية حاول المحاربون الأزليون استغفال الوقت وتحالفاته، لكن ذخيرة الموت كانت حية.

مات منصور فوق فرسه فزعردت النداَبة وصرخت:

"الأحمر بن منصور اعلامو كاسي عودو.

الأحمر بن منصور صابغ دخان الثلثي".

تزاحم الموت على سيد الساهل ونسي أنه محارب عليه الإحتفاظ بدمه ما أمكن للحروب القادمة، لكنه دفع بفرسه وسط ذلك الزحام نحو كمائن جنود الريح متسللا بسكينه يذبح، بعينين مفتوحتين حتى قبضوا عليه وأعدموه، بعد ساعة، مثلما أعدموا كل الذين لا يريدون الإنضمام إليهم.

عاد بنطاهر بنزيفه وآلامه من جراء الشهداء الذين سقطوا، يجمع المحاربين ويتشاورون في الرجوع إلى القبائل حتى يستجمعوا قواهم من جديد.

- لو واصلنا الحرب فإنهم سيبيدوننا، ولنحافظ الآن على ماتبقى من محاربين. فالحروب كثيرة اليوم وغدا وطيلة هذا القرن الذي لم نر منه إلا سبع سنوات بعد. (قال عياد العشي).

□ □ □

أشار الفقيه سي عمر أن تحزن مكارطو ثلاثة أيام على شهداء الشاوية وحي التناكر وتداولوا اسم سيد الساهل ومنصور، فجاءت الوفود من كل الشاوية للإطمئنان على بنطاهر داخل قبته الواسعة والعامرة باستمرار، أما عياد فوحده يقود حركات التطمين والتلطيف من حرارة الصهد.

- هل انهزمنا ؟ (سألوه بقلب خافق).

- لا. مات منصور مثلما استشهد جدنا علي في زمن الغدر، بنفس القتلة ونفس السلاح. (رد عياد العشي).

- سننتقم للجميع أو نموت كلنا.

- لا. نحن نحارب فقط كما كنا، ولم نتعود الإنتقام.

- هم دائما الذين يصنعون أو يقررون في تواريخنا، ولكننا نحن الذين مكناهم من كل شيء لأنهم عاجزون دوننا، ثم، لا يبتئس أحد منا لأننا لم نعرف الحياة دون معارك ولم نألف المعركة دون استشهاد. لابد لنا من حرب أخرى...

- قبل تسع أو عشر سنوات هنا، بالأعشاش ومكارطو جاؤوا عندنا وذبحوا حتى صار دمنا وادا مرعبا، ليس لشيء إلا لأننا رفضنا أن نكون حراطين وعبيد نحرث ونحصد، نجوع ونشقى ثم نسلم كل غلتنا وأموالنا للقادمين، فقالوا أننا سياب لانخضع لنزوات القيد والحاجب والوزير والريح والمخزن عامة.

- الرياح كثيرة ومتلونة، أسلحتنا ضعيفة وتقليدية نعم، ولكن صدورنا مليئة بالإيمان، بذخيرة لاتنفذ، ومناجم من الأرواح المتجددة.

تواصلت المعارك فتاه الموت واتضح للجميع أن عبو الريح ليس واحدا فهو بجنوده ومحلاته يحتمي بالحكام ويخالط الأجانب حتى صارت الناس تتحدث عن عبو الأسطوري المرعب الذي يتحكم في كل شيء. تناسلت منه أسماء كثيرة ضالعة في السلطة المركزية فلم يعد أحد يميز بين عبو الريح وأحمد بن موسى لأنهما واحد من سلالة المسمار.

جاء داماد، الجنرال الفرنسي، خصيصا كي ينتقم من الفلاحين الثوار وخصوصا أهالي مكارطو.. فجالسه عبو الريح ذات ظهيرة حول الخرفان المشوية، وحولهما الشيخات يجذبن جذبة المناحة، أما عبو فهو يختصر للترجمان ماسيقوله للجنرال: "في هذا الوطن جنة مهجورة حجرها كحل وترابها تبر وماؤها عسل لكن أهلها شياطين ومردة..."

- هم من قتلوا جنودنا بالتأكيد؟ قال الجنرال.

- هم أهل الشاوية... وقتلوا جنود المخزن أيضا؟. رد عبو.

- ومن مكارطو؟

- رأس الأفعى، والعرق الحار في الجنة المهجورة.

كان الجنرال يعرف كل شيء من قيادته، ويهيء لتخطيطاته الجحيمية.

الزمن لم يعد بنفس المذاق، والتذكر يشحن لحظات عبد السلام فلا يَنْسَ الساعات الأخيرة التي فارق فيها شامة، والرسوم والمنسج... وشرودها وكل شيء احترق ولم يعد إلا دخانا سائبا.

- شامة.. ماذا أقول لهذا الزمن؟ قال عبد السلام في نفسه دون أن يجد جوابا لهواجسه.

□ □ □

ثخين وقصير القامة بشكل ملفت للإنتباه، شعره الأزعر محفوف دائري ومسترسل، يرتدي لباسه العسكري ويعتني كثيراً بترتيب نجومه الفرنسية، ووجهه الذي يغلي فيه الإحمرار فوق بياض بشرته، دائم الإنقباض مثل صوته الذي لا يخرج إلا صراخا.. وكأن هذا الجنرال القادم من فرنسا لن يحيد عن ثأر حادثة البابور رغم مرور ثمانية أشهر على ذلك، وإقالة جنرال آخر لم يفلح في اختراق سهول الشاوية.

خلال اجتماعاته الأولى مع المقيم العام وكبار العساكر في الجيش الفرنسي كان الجنرال داماد لايجلس على الكرسي وإنما يصعد فوق الطاولة، يصرخ ويخطب ويشير بسيف رقيق وصقيل مثل سلك لاغمد له، إلى خارطة الشاوية:

-"هنا. هنا أيها السادة، الأرض التي كنت أحلم بها قبل أن أولد، سأدخلها محاربا فرنسيا يؤمن بفرنسا وأوروبا، وهناك سأقول لكم إني أستحق أن أكون جنرالا بافتخار بعدما نروي الأرض ونطهرها بدم أولئك الأجلاف".

القصير ذو الشعر الأزعر المحفوف يرسم عشرات الخرائط والخطط ويدون

الملاحظات السابقة للرحالة والمبشرين، فيقف على بعض الأشياء التي يؤشر عليها، أحس برعشة الإنطلاق لقذف الموت في وجوه الفلاحين الذين أرقوه.

ركب الجنرال داماد جواده نحو طريق مديونة، خلفه آلاف الجنود، وبجواره عشرات العملاء الذين باتوا يحلمون بتولي القيادات التي سيهزمها الجنرال. قبل بدء أية حرب كان يصلي صلاته الخاصة... يحرق الحصائد بصبه الغاز على أرنب يشعل النار فيها ثم يدفع بها تنشر الإلتهام، بعد ذلك يسمم الآبار والأودية والمطفيات ثم يهاجم في معارك يكون قد ربحها بدسائسه وأسلحته.

مات خلق كثير وضاعت بهائم لا تحصى بين أولاد حريز والمزامزة، فاستدعى الجنرال كبار المتعاونين مع الريح، وأمرهم باسم "الريحّ ومن معه" بالتعاون من أجل استرجاع أرض السيبة إلى الحكم المركزي... ثم أنظرهم الأوراق المخزنية وأنذرهم، فامتثل الجبناء والذين لا يجيدون غير الحساب في الفرص الضائعة، ورفض الآخرون الذين فكوا كل ارتباط قديم لهم مع المخزن وصاروا هم وعامة الفلاحين شيئا واحدا، لكن اسم داماد ظل ينتشر مقرونا بالموت والحريق والتسمم. أما هو فلاتهمه هذه القبائل كثيرا، **من صخرة عبو إلى صخرة الدجاجة** والتي طاردها بالقنابل والطرادات، ولكن مكارطو التي قادت حركة الإنتفاضة هي الهدف حتى يكتب تقريرا تفصيليا عن ثأر فرنسا لمقتل جنودها.

فوق ربوة عالية بأمزاب ابتنى محلته الكبرى، يبعد عن مكارطو بمسيرة حوالي ثلاث ساعات مشيا وئيدا، وكل شيء في الشاوية صار مشرعا على الخراب، فالقبائل تحارب بدون أسلحة تنتظر قدوم الجنرال القصير الذي لا ينزل من ظهر جواده، بنطاهر مازال مريضا ومتعبا من معركة البابور والمعارك الأخرى داخل الشاوية لصد الجنرال السابق، فازدادت جروحه اتساعا ولزم القبة مرة أخرى، أما عياد العشي فإنه صار قائد الحركة يبحث عن المعارك في أي مكان.

حددوا جهة الجنرال، فهاجموه ليلا، تراجع وبدا منهزما وازداد تراجعه حتى دخل الغابة في حدود المزامزة، أرسل الجنرال عميلا براية بيضاء يقول للمحاربين المكارطيين أن داماد لا يريد أن يدخل امزاب.

صدق عياد الدسيسة وعاد في ذلك المساء يدفع بالمحاربين وبمعركته الوهمية البيضاء، التي لم يجد حينما ارتمى فوق الأرض لينام، شيئا يكتبه عليها ولكنه تذكر أحمد بن موسى قبل عشر سنوات.. أما الجنرال فإنه وسط ظلام الغابة رسم دائرة فارغة كتب فيها مكارطو بالفرنسية وحطب لها بنفسه ورق الخروب، وضعه ثم أشعل فيه النار وقال لجنوده: "نريد مذبحة شبيهة بمذابح الإغريق". آنذاك دفع بكل عتاده نحو مكارطو التي سيصلها قبيل الفجر بساعة.

الضجيج يحوط المكان، والفقيه سي عمر الذي استفاق قبل الجميع، ذكره مايسمعه بشيء بعيد عن ذاكرته دونه في كناش من ثلاثين صفحة مكتوبة على وجه واحد بخط مغربي دون تنقيط أو فواصل تحت عنوان "ثورة الأعشاش، 1316 هجرية"، قام مسرعا يأخذ الماء من الخابية ويتوضأ في إجفال فيرى وهو يمسح رأسه في حركة ذهاب وإياب.

عشر سنوات انصرمت على مثل ذلك الفجر الأرعن حينما هاجم أحمد بن موسى، يحصد الأرواح ويقتل في الأعشاش الذين حاربوا ولما تعبوا ونفذت كل ذخيرتهم جاؤوا إلى مكارطو، والغابة.

لماذا يا أحمد بن موسى؟

الجنرال داماد على حصانه مصحوبا بالريح الذي اختار أن يبيع مكارطو بحفنة روح خبيثة تسري في جسمه، رفع السلك الرقيق علامة على بداية الهجوم المباغث، يقتلون العزل والشيوخ والأطفال والنساء، لكن عيادا وباقي المحاربين استجمعوا أشلاءهم وتصدوا لكل ذلك إلى الصباح، فبدا مرة أخرى أن الجنرال القصير له جراب

مليء بالمكائد، حينما تراجعت، وقت الضحى، جنوده لتفجير كرات جاءت من طرادات كانت في الخلف تنتظر الإشارة، ثم كرة رابعة كسرت ماتبقى في مكارطو من حصون وأنفاس. فشبت الحرائق وهاجم الجنرال مرة أخيرة وسط الأدخنة التي لم تتجل إلا وقت الظهيرة على ما يزيد عن الستة آلاف جثة، وكل البيوت مخربة، وحرائق متفرقة ومكارطيون آخرون مازالت الروح بدواخلهم تتفرج على المشهد قبل أن تتبدد بدورها مثل الدخان المتهدم وهو الشيء الأكيد في تلك الظهيرة.

بعد القنابل، دفع عياد بالفاضلة ولالتهم وعبد السلام إلى مطمورة داخل الزريبة، فغطاها بعدما أوصاهم بالبقاء حتى يعود، خرج يضرب بما تبقى فرآهم يصوبون رصاصهم إلى جسد بنطاهر المنهوك وهو خارج يزحف حاملا بندقيته، اخترقوه بمئات البنادق بتوصية من الريح، وهموا بالبحث عن عياد والآخرين، فكان الفقيه قد مات محترقا مع وضوئه، وأصيب عياد برصاصة في فخده الأيمن فصار ينزف ولم يعد يقوى على شيء، زحف على ظهره بصعوبة نحو الزريبة فتدلى إلى أهله المختبئين.

تطوع بعض الجنود وأسرعوا لإفراغ الرصاص في كل جسد رأوه يئن أو مازالت روحه متعثرة فلم يكملوا المهمة لأن الجثث كثيرة، والنهب الذي كانوا يطمعون به غير موجود باستثناء مكحلة وسيف لبنطاهر وسلهامه الذي صار مثل الغربال.

لالتهم تبكي وهي تشد النزيف أما الفاضلة فقد جعلت رأس عياد يتوسد فخدها وهي تبكي في صمت داخل ظلام المطمورة.

- لالتهم لاتبك. نحن لن نموت. (قال عياد بعياء شديد).

- لن نخرج الآن يا أبي حتى... (همس عبد السلام).

- الجنة هكذا... (تنفس صوت المرثي).

العصر ساعة الموت والهمود. جثث بالآلاف محترقة أو متفحمة اختلط رمادها بالدماء، بالأدخنة المتصاعدة من حرائق شتى. تخيل داماد المشهد، أو رآه أبعد مما كان

قد تخيله فدفع بجواده وسط الرماد والدم والأدخنة مخاطبا المشهد:

- **"ياجثث مكارطو. الآن فقط يمكنكم أن تبايعوا سلطة المخزن وفرنسا الحرة وتحيوا الريح صديقنا الأزلي"**؛ ثم التفت إلى عبو وخاطبه إن كان يريد أن يبقى ليحكم الجثث أم يرحل معهم إلى المدينة.

انتهى كل كلام أو تعليق، الجنود خلف قائدهم ومرشدهم يخطون بخطوات وئيدة وكل واحد منهم يفكر في نسيان ماجرى بين الفجر والعصر المذبوحين إلا الجنرال الذي سار جذلانا يلتفت دون أو يوقف جواده المتعب.

الليل طويل جدا والذين كانوا قد فروا من المذبحة إلى الأعشاش عادوا معززين بآخرين إلى مكارطو يلتقطون الأحياء لمداواتهم في الأعشاش، ويدفنون الأموات في مقابر جماعية خلال ثلاثة أيام متصلة.

□ □ □

لم يكلم عياد أحدا طوال فترة مداواته بالأعشاش حينما صار قادرا على حمل نفسه، خرج في الصباح الباكر، حمل زوجته ولالتهم على بغل وركب هو وعبد السلام على جواده ثم ساروا في اتجاه خراب مكارطو حيث وقف وصلى على أرواح تلك المقابر الجماعية قبل أن يواصل سيره نحو سهول المزامزة.

في الطريق لم يجد عياد شيئا يخبر به عبد السلام ابنه إلا أن يقول له بأن أرض الشاوية، كلها، كان عليها أن تبقى ساحة للحروب الأبدية. لم يسأله وإنما نظر بعيدا أمامه فرأى عمه سيد الساهل واقفا ينتظرهما، وشامة تلعب وتبحث في شكارة منصور عن الحلوى... ثم انطفأت الصورة والتقطت أذناه صوت البابور والطرادات والقنابل والأعشاش الذين يحكون عن جنرالهم الذي فعل معهم مافعله داماد بمكارطو.

لماذا يا أحمد بن موسى؟

وكيف حين تمشي يكون ظلك هو صورة عهو الريح؟

سيمشي في حديقة قصره الواسع لوحده وهو يعرف أن عيون العبيد والإماء في ذهول من خطواته الثقيلة غير العابئة بالذين ينتظرونه في قبة الانتظار.

- سيدي أحمد، تاج الوطن وصائن مجدنا... جئتك بخمسمائة ألف، سأعطيك مثلها كل سنة، وفي الباب السمن والعسل والجمال والخيول هدية مني إلى مقامكم العالي...

- وماذا تريد أيها البار؟

- أشتري قيادة قبائل زعير.

- هي لك. قال له.. وكل من يزيد يأخذ... هكذا قانون أحمد بن موسى، من يرغب في شيء لابد أن يدفع ويحرص على الدفع باستمرار. لايهم كيف يجمع وإنما الحرص على المواقيت والعادة.

- *هل يستطيع أن يتدخل للدفاع كي يصير قنصلا أيضا ؟*

- هذا شيء بسيط لأن قدرته تمتد في دفعه بالبعض للإستوزار.. إنه ممتد في كل دواليب السلطة، قادر على كل شيء لأنه يسيطر على الوطن بعيونه وآذانه وشبكته المنظمة في كل أرجاء الوطن.

كل صباح ينهض ويبوس الأرض بين يدي زوجته ثم يتمرغ ويبكي حمدا لله أنه سيقضي النهار في خدمتها يجمع لها المال والهدايا.

ماتبقى من النهار يبدأ بجلوسه في مجلس يضم العديد من الرجال الملفوفين في جلاليب قصيرة يبدؤون - بالتناوب - في سرد أخبار المناطق والقياد والباشوات وهو يسجل بخط صغير ملاحظاته في كناش كبير. ومرة في الشهر يسرد على براحيه لائحة بأثمنة الزرع والسمن والعسل واللحم في مجموع الوطن.

منذ أيام، شرع في بيع الأراضي مبتدعا أسلوب بيع مافوق الأرض فقط، وأسلوب الكراء والتعامل مع الأجانب، وبنفسه يسجل ملاحظاته.

مسعود واحد من العبيد الذين جاء بهم رجال أحمد بن موسى من بين والديه من مراكش، ثم جلدوه كثيرا وعلموه أصول الطاعة والعمل حتى الموت.

ربما.. هو الوحيد الذي لم ينس شيئا وبقيت روحه حرة لا تذعن للأوامر وتحلم بالإنعتاق، كان حريصا على مراقبة هذا الأحمد بن موسى الذي يخشونه بشكل فظيع، وذاكرته تسجل كل ما ترى.

لم يكن مثلي عبدا باللون ولكنه عبد لأوهامه الشتى. يتأسف، من خلال نظراته التي منعوا علينا التمعن فيها...

(وقع أن كان أحمد بن موسى في مجلسه يتأمل فدخل عليه أحد العبيد ليقول له بأن وجبة الغشاء جاهزة، فالتقت نظراته بنظرات أحمد... آنذاك أمرهم أن يفقأوا عينيه التي لا ترمش، ولا تحشم ولا تغض طرفها آن تكليم سادتها... وهل تعلو العين على الحاجب؟).

نظرات ثقيلة وعامرة بما يرهب.. من عاداته التي اكتشفتها فيه أنه يتلذذ بالمديح كما يتلذذ بالتعذيب، آنذاك يحك حاجبيه دلالة على الفرح.

أذكر في يوم من الأيام. قبل سنتين تقريبا، سمع بعصيان عام بقبائل الرحامنة فلم يعد يأكل شيئا ومنع عنا -نحن أيضا- الأكل والشرب حتى ذهب وذبح الرحامنة وعاد بشهوات أخرى.

كلما حل الليل تناول عشاءه مع مجموعة من الأعيان وهو يستمع إلى جوق يعزف له الموسيقى السوسية والأندلسية ومن حين لآخر يخاطبهم بما يرضي التذاذاته.

- هل تعلو العين على الحاجب أيها الأعيان؟ قال.

- سيصيبها الله بالرمد والعمى ونفقأها بالسفود الحامي يا تاج الوطن. قالوا.

- وهل يخفق القلب في غير الصدر كما زعم ثوار الرحامنة؟ قال.

- سيتوقف وينفق وتزكم رائحته الأنوف. ردوا.

- الناس الطيبون مازالوا في أرضنا، قبل أسبوع كنت أتفقد الأحوال بتادلة تقدم مني شيخ أمرد فطلب مني أن أتناول عنده طعام الغذاء ولما رفضت لأني كنت في عجلة من أمري، سلمني صكوكا تضم مائة وعشرين هكتاراً وقال لي "هذا غذاؤك ياتاج الدنيا..." تأملوا معي هذا الحب من الشيوخ والصغار...

قبل أن يهم بدخول جناح زوجته يتطيب ثم يبسمل، فتراه قادما، يفسحن له الطريق وينسحبن لتركه يقبل يد زوجته ورأسها:

- أنعم الله علينا آلالة مولاتي اليوم بأراضي أخرى في عبدة وسوس، وبهائم وأموال أدخلتها إلى مخزننا العامر.

في الفجر، خرج أحمد بن موسى لابسا جلبابا صوفيا ثقيلا وبطانية رمادية على كتفيه. جلس في البهو العالي داخل قصره، والذي يطل على حديقته الواسعة.. والفجر مازال مخلوطا بالصمت والرماد والبرد القارس ورائحة جهنم!

قام والتف جيدا بالبطانية ثم جلس على الكرسي الواسع يتأمل في الحديقة ويسترق السمع بعد ذلك أغمض عينيه يقرأ الأوراق الأخيرة المدونة في كناشه. لقد حفظها من شدة ما قرأها... قبائل الشاوية ترفض أداء واجباتها وترفض القياد والأعوان الذين أرسلناهم وترفض أحمد بن موسى.

- ماذا قالوا... الطاغية؟ تململ يخاطب نفسه.

- وما معنى هذا الكلام العجيب؟!

جملة أخرى قضت مضجعه أرسلتها الأعشاش وهي ترفض أداء واجباتها وتقول كلاما ثقيلا...

- الأعشاش مرة أخرى.

تذكر رجلا عشيا لم يعرف العسس كيف دخل وصار أمامه، بشعر مشعث ونظرات زائغة، يلبس فرجية بيضاء وهو حافي القدمين، وكان فضاء مجلس أحمد بن موسى عامرا بالطيوب والبخار المنبعث بصوته يغلي من بَبُّور نحاسي.

العبيد والعسس تجمدوا وأحمد بن موسى بدوره هم بالقيام فلم يجد ركبا يقف عليها.

- لماذا يا أحمد بن موسى.. ما فعلت؟ قال له الرجل العشي، فذهل وانخرس.

- وماذا ستفعل؟ أضاف يرميه بالسؤال.

أعاد عليه السؤال وصاح مرة أخرى.. يا أحمد بن موسى... الحاجب لا يعلو أبدا عن النظر إلى الحق، والصدر لا يحمي القلب الفارغ من الإيمان... وأصل الدنيا شاوية.. ولن تكون أبدا تاجها... راه حنا معاك بالله والشرع.

كرر الجملة الأخيرة ثلاث مرات ثم مزق صدرية فرجيته حتى تعرى صدره ففاض الحليب من حلمتي ثدييه كما فاض الرذاذ والغضب من فمه وعينيه وشرارة سوداء لم يرها غير أحمد بن موسى المذهول.

اختفى الرجل العشي. وبقي أحمد في حالة الإندهاش يتذكر أنه يسمع كل يوم همسا في أذنه يقول له "لماذا يا أحمد بن موسى؟"

صرخ في العسس وقد قام منتفضا.. "هذا الرجل الذي اختفى" ألم نقتله ونرميه في مطمورة الگرنة، ثم وجدتم شبيها له وقتلناه ووجدتم ثالثا ورابعا وسابعا.. قتلناهم... ولماذا جاء مرة أخرى وكيف دخل وفاض صدره بالحليب الذي تحول إلى شيء أصفر مثل السم حينما اختفى...؟

انتفض من مكانه وقام ليلف البطانية حوله من جديد ويقطع حبل تذكراته في ذلك الفجر. يجلس ويعاود الإرتباط بفضائه واستراق السمع إلى المطامير الخمسة الموجودة بأقصى الحديقة والموصولة بأودية مدسوسة في الأرض تصب فيها الدماء المدفقة من بيت ذبائح الگرنة.

يصيغ السمع عساه يسمع أنين الثوار الثلاثة الذين اختطفوهم من أولاد حريز ورموهم بالمطامير ثم أحكموا إغلاقها.

- هل شبعوا موتا أم مازالوا؟ (قال في نفسه)

ثم عاد يتأمل داخل شاشة تذكراته رسالة الأعشاش وهو يحك رأسه بعصبية باحثا عن شيء يسحقه.. فخمن في ذلك الفجر الثقيل أن يحفر مطمورة كبيرة يملؤها بدماء أهل الأعشاش ومكارطو والمزامزة وكل أهل الشاوية.

احتار وتوتر ثم ارتخى يعاود التفكير من جديد. أغمض عينيه وسها فلم يفق إلا على نحنحة مبارك الخادم الطويل الذي اقترب منه وهمس في أذنه يخبره بعدما أشار إليه بيد مرتخية:

- قايد السبايسيا يقول لك بعد كل فروض التحية بأن الأعشاش طردوهم وقتلوا منهم حتى شبعوا، وبعثوا يقولون لك كل واحد مخزن على راسوا.. وأضافوا كلاما عن المحميين والمخالطين والكفار وحديث عن النهب والشرع وغير هذا.

انتظر صمتا فهم منه أن مبارك قد أنهى خبره فرفع نفس يده الرخية يأمره بالانصراف.

أحس بابتعاده فأخرج كناشه وسجل كل ما سمع وقد فتح عينيه بسرعة لامعة. نهض، لكنه عاد واقتعد ليتخيل ما سيأتي.

هل تريد أن تحارب أروبا يا أحمد بن موسى؟ عشرة آلاف محارب لمحاربة دوار بسيط وسط قبيلة تصارع من أجل حياة نبيلة؟ هكذا سمع هتافا تقزز له حاجبه وضاق صدره، فلم يبال واختار الفجر الرمادي الثقيل لأن كل من كان يهاجم الشاوية ينطلق من الفجر الداكن والمظلم.

وقف بعيدا ليأخذ أنفاسه المتهدمة بالحقد على الأعشاش ثم تقدم بكل جنوده فحاربوه حتى نفذت ذخيرة الفلاحين، فضربوا بأرواحهم لكن أحمد بن موسى كان

يعرف أن الغلبة للسلاح، وبعد يومين ثقيلين في الميزان أباد جزءا كبيرا من أهالي الأعشاش وتراجع محاربون قلائل إلى مكارطو من بينهم بنطاهر، عياد العشي والفقيه أمقار... حتى يثأروا للشهداء.

نفس رعشاته والتذاذاته المألوفة، تلمس حاجبه ثم وقف فوق جثث ثوار الأعشاش وصاح يخطب:

– لماذا يا ثوار الأعشاش؟ أنتم الآن جثث لا حياة فيها... يمكننا أن نتحاور ونتشاور حول كل الأمور التي تخصكم وتخص الوطن، ولكم أن تختاروا جثة من بينكم يسندها مبارك ومسعود لتكون قائدا عليكم وتبايعوا من نريد وتؤدوا مستحقات المخزن كلها. وإننا على البال.

ثم قفل راجعا ومن حين لآخر يلتفت نحو سراب وهمي ينادي عليه فيرى الرجل العشي بفرجيته الممزقة وعينيه الواسعتين وقد فاضتا بالدم حتى تبلل حاجباه.

III

ذات ليـــل

«الزمن هو غير الزمن، وعين مول الوقت
تدمع رغبات مشوية مثل النسيان.
كثرة المراود كتعمي»
حكاء أعمى

عياد العشي

كاهل عياد مثقل بابنيه وزوجته وبالتراث الفادح الذي يرثه من الموت والحروب والمنفى، وفي دوار أولاد سليمان، قلب قبائل المزامزة، يقف خلف الحصادين الذين انتهوا من الحصاد وهموا بجمع المحصول نحو قاعات الدراس. ترك أهله بعيدا وسأل هل هناك أحد في حاجة إلى خماس أو سارح... هكذا تكلم عياد الذي فقد مكارطو وزمنها وليس أمامه إلا بداية حياة أخرى كيفما كانت.

الحاج قاسم الذي كان حاضرا، أخذ عيادا من يده وسأله عن جهة قدومه فأخبره باقتضاب بأنه من الشياظمة ثم أرسله إلى كوخ بعزيبه ودعاه للعمل في الدراس.

سيد الحاج قاسم الذي يملك أزيد من ألفي هكتار بالمزامزة، قصير ونحيف البنية، لايأكل إلا مع الفلاحين، ورغم بعض بخله فهو طيب القلب سموح، شديد العطف على الخماسة.

آلف عياد وأهله الكوخ والزريبة كما آلفوا النسيان، لهذا فهو منغمس في عمل كل شيء، راعيا وحراثا وحصادا ودراسا وبناءا، لا يتكلم كثيرا، وعبد السلام يرافقه في كل مكان للعمل معه، وحينما كان بعض الخماسة والفلاحين الآخرين يفرون عن الحاج قاسم أو يلحون عليه دائما - بشكل مضجر- في الشكوى وادعاء الحاجة، أو تنفيذ بعض السرقات الصغيرة للزرع من المطامير، كان عياد صموتا قنوعا حتى صار هاجسا للحاج الذي يتكلم عنه مع أصدقائه باعجاب: "لا أعرف عياد الشيدي، أشعر بقوة صمته وصلابته وعمله الدقيق وإخلاصه وقلقه... أشعر أحيانا أني الخماس وهو السيد. أنا لم أعد أثق في ابني الذي هو من صلبي وأشعر بالأمان مع عياد على أملاكي وحياتي...

لا تعرفون لماذا أسميت ابنتي باسم شامة؟ كنت أتفقد البهائم التي يرعاها مع ابنه جوار الغابة، ثم جاء المرسول من العزيب يخبرني بأن مولاة الخيمة تتوجع قبيل الولادة، فأسرعت أركب بغلتي، لكن عيادا نادى علي. إلتفت نحوه ودون أن ينظر إلى وجهي قال لي: «سيد الحاج، السيدة ستَلد شامة» جريتُ وأجلتُ الانتباه والتفكير في ما قال، وحينما وصلت وجدت امرأتي قد وضعت بنتا جميلة، حملتها وقلت للجميع، هذه هي شامة المزمزية.

شامة الآن أعز إلي من كل مالي وأملاكي، لأنها ملاكي الذي أحيا به في قبتي حينما أستفيق في الفجر".

لم ينس عبد السلام أن ينظر إلى شامة بنت سيد الحاج فيتذكر ما عليه أن ينساه كما أوصاهم عياد وقد استبدل إسم العشي بالشيدي.

مكارطو والأعشاش والمرسى وشامة والأبطال الملحميين يتمنى لو كان خليطا من هذا النسيان ومن بسالات الأجداد الذين لن يبيدوا، واختار أن يكبر مع أخته لألتهم وشامة في حضن أصياف وشتاءات أولاد سليمان المعتقة. فتعلم الرعي والحصاد والحرث والدراس، وحينما جاءت الحرب الأولى تمنى لو كان حاضرا فيها، لكن زواج لا لتهم في المزامرة أنساه أخبار الحرب، وعاد يفكر في النسيان وفي شامة التي دخلت محلة الموت، يصعب عليه مقارنة شامة بشامة ثم ينسى. أما عياد فإنه ظل يلتقط الأخبار عن مكارطو وعن الريح الذي انتقل إلى أولاد سليمان ملاكا كبيرا قريبا من المركز الحضري يباشر أملاكه الموزعة ويمارس هواياته واحترافه مرة واحدة دون أن يتخلى عن ارتباطاته الوثيقة بالأجانب ودسائسه ووشاياته بالثوار والمحاربين، أما الجنود الذين كانوا تحت يده فقد باعهم للفرنسيين وبقي اسم جنود عبو الريح يطلق على العساكر الذين يحاربون الثوار من الفلاحين.

عبد السلام الشيدي

احد عشر عاما في خدمة الحاج قاسم، بلغ فيها عبد السلام واحدا وعشرين عاما وصار الذراع المشتغل لعياد، أما الفاضلة فهي صامتة تزور ابنتها من حين لآخر ثم تعكف على خدمة زوجها وابنها.

- سأرحل، آسيد الحاج، الله يخلف.

قال عياد للحاج قاسم الذي اندهش وسمع الخبر كمن تلقى سطلا باردا على كل جسده، فسأله:

- لماذا ياعياد.. هل أغضبناك. أنت أعز عندنا من أي أحد آخر.
- لاشيء. الحرب انتهت.
- أية حرب؟

- لاشيء. أريد أن أستقل بنفسي.

- اِبق معي ياعياد وأعطيك أرضا...

لم يستطع الحاج قاسم أن يثني عيادا عن قراره المفاجئ، فرحل إلى دوار الكَرار الموجود داخل نفوذ المزامزة غير بعيد عن أولاد سليمان إلا بعشر كلمترات، في منطقة معزولة، اشترى فيها أربعة هكتارات وابتنى له خيمة، واختار أن يكون جزاراً في الأسواق، يساعده عبد السلام الذي زوجته أمه بالحمرية، فابتنى لنفسه خيمة أخرى وصار هو المتكفل بوالديه بعدما تعبا ولم يعودا بقادرين على العمل مثلما كانا في السابق، ترعاهما زوجته الحمرية بحنان كبير.

عبد السلام هو الجزار الوحيد بدوار الكَرار، اشتهر بعنفه حتى بات من يعرفه يخشى أن يخطئ معه في شيء، فهو باستمرار يحمل السكاكين والجراب بالإضافة إلى شكارته الجلدية التي أخذها من عياد والده.

□ □ □

وضعت الحمرية في السنوات التالية بكرها الأول محمد الشيدي وهي الفترة التي قرر فيها عياد العودة إلى مكارطو مع الفاضلة بعدما اقنع عبد السلام، ولأول مرة بكلام بعيد عن الأمر والتقرير:

- "الآن بعدما تأكدت من استمرار السلالة، سأعود إلى رمادنا ولن ننساك أنت ولاَلّتهم".

تنفس طويلا من الغضب الكتوم موافقا على مضض، لأنه يعرف والده حينما يتذكر الأشياء التي تربطه بطموحاته القديمة، وسط امتداد الفرنسيين وظلال المخالطين والمحميين.

ضاق صدر عبد السلام فأخذ محمدا ابنه بين يديه يسأله:

كيف أحاربهم؟ أنا وأنت وجدك من تبقى من المكارطين، ألم تتعب من المنافي.

لا ، الزمن هو غير الزمن. المخزن والجوع والريح يتبعون حصائدنا دوما... وظروفنا ليست هي ظروف مولاي علي وسيدي الطاهر وبويا خليفة وكل أجدادي وسلالتي.

أبدا. لست أقل منهم، والمعارك ستستمر كما أريد لا كما يريدون.

أتعبه التفكير فلم يتنفس إلا حينما سمع بمقتل عبو الريح العميل على يد الثوار، وتاركا ابنه سعيد الريح الذي هو في مثل سن عبد السلام، وأخوين آخرين استقرا بفرنسا بعد مذبحة مكارطو.

رياح خفيفة في يناير شهر العواصف المخزونة. خرج عبو الريح يترنح من إفراطه في شرب الخمر مع أحد الجنرالات، وكما ألف، وقف قرب الطوار ينتظر قدوم الكوتشي المذهب الخاص به والذي يقوده حصان شامخ ويسهر عليه اثنان من خدمه. ويعرف، بالتعود، أن مسعودا ومبارك (كما يحب أن يسميهما محرفا أسماءهما الحقيقية) سيحملانه ويضعانه داخل عربته الفاخرة ثم يغلقان الباب ويسدلان الستار، بعدها يرتخي ويتلذذ بالدقات التي تحدثها الصفائح الحديدية للحصان الشامخ.

لم يحدث في تلك الليلة الباردة أي شيء مما كان ينتظر متعودا، لأن شخصين كانا قد قيدا الخادمين وخنقا عبو الريح ثم طعناه حتى لفظ أنفاسه كلها، والتي تحولت إلى ريح صفراء تهب هبويا صارخا يقول عبو الريح مات ومات... "**طاح عبو طاح، عودو داوه سيادو**".

سعيد الريح نسخة أكثر شراسة من والده وأدهى من عمه ولد المخزن. تزوج امرأة فاسية وحيدة والدها الذي يملك معملا للثوب بفاس وآخر بالدارالبيضاء وسيعرف مع صهره الريح توسعا لم يحلما به أبدا خلال أزمة الثوب وغلائه.

باع الريح أملاك أبيه بمكارطو واشترى أملاكا وعقارات بالدارالبيضاء ومراكش وأرضا أخرى بالمزامزة-أولاد سليمان وعقارات بالمركز الحضري، سطات، ففتح هريا كبيرا يبيع فيه الأثواب والخمور والمأكولات وبعض المقتنيات الفرنسية فكان زبناؤه من

الفرنسيين والمخالطين والمحميين وكبار التجار والفلاحين، وشاع أن هذا المتجر العام الذي لايوجد بالبلاد مثله، هو شركة بين الجنرال ليوطي والريح.

تذكره عبد السلام فاستحضر أنانيته وصراخه ولونه الأبيض ولباسه الأنيق. فَتَفَل وكان قد عزم على الخروج من دوار الكَرار والإنتقال إلى المركز الحضري بسطات وقد بلغ ابنه محمد الشيدي ثماني سنوات من عمره فبدا أكبر من سنه لقامته الطويلة وطبعه العنيف، في ملامحه يشبه جده الرابع.

بالمركز اشترى بيتا بريالين ودراجة جديدة بفرنك واحد، واتجه نحو الحاج قاسم الذي صار عجوزا لايقوى على الحركة، جلس معه طويلا وأخبره بأن والده عياد كان يزوره باستمرار وحكى له عن كل شيء.

وافق الحاج قاسم، دون تردد، أن يبيع عبد السلام قطعة أرض متصلة قريبة من مركز سطات فيها حوالي سبعين هكتارا، فلم يتفاوضا في الثمن لأن اقتراح عبد السلام كان هو أن يؤدي ماتبقى في ذمته على أقساط.

دخل طفل صغير يجري فصاح فيه الحاج باسم عبد السلام حتى يسلم على عمه.. ومن خلال حديثهما فهم الشيدي أن شامة تزوجت منذ ست سنوات وأسمت بكرها باسم عبد السلام.

لم يشأ الاستماع إلى ما تبقى لأن رعشة عنيفة سيطرت على وجدانه وخشي الإقتراب من الطفل عبد السلام ابن شامة التي لم تنس أبدا أن عيادا هو الذي سماها، فاختارت أن تسمي وليدها الأول باسم ابن عياد. وهو خارج من القبة والزريبة أحس بعيون امرأة اسمها شامة تنظر إليه من الخلف، فخفق قلبه واندفع حينما سمع صوتها ينادي على عبد السلام، يجره إلى عمر آخر بين نداء شامة بحي التناكر وهمس شامة بدوار أولاد سليمان وتلك اللحظة، رمى برجليه، ثم تراجع والتفت فرأى شامة تنادي على ابنها وتعانقه بحرارة وهي تنظر إلى عبد السلام الشيدي - كما لو أنها أول مرة...

خرج وهو لا يعرف بالتحديد هذا الشيء الذي يحرك رعشاته، ورمم بعض

التهدمات القديمة... في تلك اللحظة الشاسعة. ولكنه حينما وصل إلى بيته تمدد داخل غرفة مظلمة بعد إغلاق نوافذها ونادى على ابنه محمد، عانقه وناما.

□ □ □

البيت الكبير الذي يسكنه سعيد الريح قريب من بيت عبد السلام، كل صباح يخرج منه الريح بلباسه الأبيض متجها نحو متجره الكبير بعد المرور على الحوانيت الأخرى، ومرتين في الأسبوع يركب بغلته، خلفه أربعة من خدمه متجها إلى ضيعاته وعزيبه بأولاد سليمان.

وفي صباح كل يوم تخرج من نفس البيت الكبير خادمتان تقودان ثلاثة أطفال ذكورا نحو مدارسهم، وتجلسان أمام باب المدرسة حتى خروجهم، وفي أيام السبت والآحاد يفسحانهم بالعراصي. أما أمهم الفاسية فهي لا تخرج أبدا إلا للحمام أو أيام الجمعة عند زوجة الباشا أو زوجات بعض الأعيان.

عبد السلام يسكن قريبا من المجزرة في الطابق الأول من بيت لم يكتمل بناؤه. أما البيت السفلي فهو عبارة عن فضاء واسع مخصص للبهائم.

وعلى بعد مائتي متر في منطقة عالية قرب خط السكة الحديدية يوجد البيت الكبير لسعيد الريح على شكل فيلا واسعة ذات سور قصير غطته الأشجار وقرب الباب يوجد مرأب تدخل إليه سيارة الشيفرولي السوداء ذات المانيفر الحديدي، وهي ثالث سيارة توجد بالمركز بعد سيارتين أخريتين واحدة للجنرال وأخرى لرحالة استقر بالمزامزة يبحث عن شيء لا يعرفه بالتحديد.

في جولاته عبر الأسواق جزارا أو تاجرا في البهائم والمواشي كان عبد السلام يأخذ معه محمد الشيدي يساعده ويستبعد أي تفكير في عجز رحم الحمرية عن إنجاب أبناء آخرين، بل قرر أن ينسى كل شيء وهو واثق أن حربا قدرية هي التي ستعيد له

ذاكرته، عدا ذلك.. لا شيء يستأهل التفكير.

الحياة رتيبة، وكل يوم يسمع عن ميت ذبيح من الفرنسيين أو من المتعاونين معهم، وعبد السلام يتتبع الأخبار من أصدقائه ومن عياد الذي يزوره من حين لآخر؛ ودسائس الفرنسيين للإيقاع بين البربر والبدو، ومطاردة الزعيم عبد الكريم الخطابي في منفاه والخراب العام الذي حل بفساد الأخلاق والطباع.

يتحاوران؛ كل واحد يتخيل الآخر صورة من سيد الساهل وبنطاهر أو منصور، ويلهمهما النسيان صورا أخرى لنقاش كان بين عياد وبنطاهر ذات يوم فيعمدان إلى مواصلته بعد مرور أزيد من عقدين ونصف.

- هاهم يرمون بدسائسهم للتفريق بين البدو والبربر ويطاردون الأمير الخطابي في منفاه ويفعلون كل شيء ونحن هنا أو هناك نتفرج.. (قال عبد السلام بصوت تغلب عليه ملامح صوت بنطاهر).

- الذين يكتبون ويقرؤون ويلبسون ربطات العنق ويتكلمون بطريقة تختلف عن طريقتنا، يقولون بأنه لم يحن الوقت لمحاربتهم وإنما يدعون للتفاوض والحوار ويشجبون ما قام به الثوار في الشاوية...

أنا لا أفهم لماذا يعتقدون أنهم يفهمون أكثر منا وأنهم أشد غيرة على الأرض منا... ويريدون تنصيب أنفسهم أوصياء علينا؟!

رد عياد الذي توقف فجأة بعدما رأى عبد السلام يريد قول شيء آخر.

- لأننا من الفلاحين البدو، لانصلح في نظرهم إلا لإنتاج القمح والشعير، والسمن، والعسل، وأن نكون خدما وجنودا لهم أمام مكاتبهم... فهم يحبون الاجتماعات والنقاش والتبريرات واتخاذ القرارات والحديث عن الشعب حينا بحزن على جهله وغرقه في هذا البؤس الكبير، وحينا آخر بالسب والتبرم منه وعدم الثقة فيه.

- وما العمل إذن؟

- إن هذه الأرض هي قضيتنا، لن تحررها الخطب والكلام المنفوخ وإنما نحن، ولندعهم في لهطتهم يناورون باسمنا ويقايضون بعددنا واندفاعنا للحصول على مكاسب وامتيازات وسلطة تؤهلهم للمناصب.

يتناسل الحوار عنيفا كاشفا لهب حمى المعرفة ولكنه يغطي عن طبقة كثيفة من الأسى بداخل عبد السلام الذي يعي بأنه لا يفعل شيئا غير العبث وينظر إلى العين الدامعة من كثرة المراود اللي كتعمي.. يتفرج غاضبا يصرف قلقه في العنف وحياة صاخبة حتى يبلل النسيان مصيره وسط مصائر سلالته والمنافي وشامة. *شامة.. كيف حالك اليوم. وحال الضفيرة والأقلام الملونة، والبواخر الجاثمة فوق الماء الرهيب، وشَرْكة الحوت.. وأخواتك وضحكهن المختنق؟*

شامة كيف حالي اليوم. وحال الفقيه وأطفال مكارطو أصدقائي وبنطاهر ومنصور والفاضلة والحمرية وشامة المزمزية وعبد السلام، ومحمد الشيدي ابني الذي يتهدم أكثر مما أنا فيه الآن.

حياة هادئة يحياها سعيد الريح مع أبنائه وزوجته وسط أملاك تدر عليه كل مايريد، يحضر حفلات وأعياد الفرنسيين ويتشبه بكل ذلك فيقيم حفلات خاصة ببيته بمناسبات مختلفة كأعياد ميلاد أبنائه وعيد زواجه، وهو دائم الإستبشار رغم بعض الشائعات التي تذاع حول علاقة زوجته بالباشا أو علاقتها بالجنرال الكبير، لا يأبه لكل هذا، لكنه حريص على عدم تجاوز الخطوط الحمراء التي تجعل دمه مباحا، فقد اعتبر من الدرس الذي لقيه والده عبو، وكان يطلب من الوطنيين إن كانوا يريدون مالا فيرفضون بعنف ويقولون له نريدك فقط أن تدخل سوق رأسك آولد عبو.

عنف كبير يحياه عبد السلام ومحمد الشيدي وسط غبار الأسواق ودم الكرنات والليالي المتعاقبة بنسيانها، فماتت الحمرية وهي على وشك الولادة ولم تخلف غير حسرة مرة.

أحس محمد الشيدي بثقل الحياة وضغطها رغم صغر سنه الذي يقترب بخطوتين عن سن الرشد، فوجد طريقه إلى بنت العلوة يسهر الليل عندها حتى الفجر ثم يحمل جسده إلى الأسواق... ومع مرور الوقت استحلى نوم الفجر وسط دفئ بنت العلوة وصوتها القاهر وحرارة الخمور ورقصاتها التي ينفرد بها.

الآن أحس محمد الشيدي بانفجار التهدم بداخله، فليس هناك شيء محدد يمكن ضبطه ولكن احساسه يضعه كل مرة في المسافة بين التذكر والنسيان؛ والعبث هو الذاكرة الوحيدة، أمامه، لتصريف ضغط الزمن في الشاوية، فلم يعد يعبأ بالدخول إلى السجن لأسبوع أو شهر عقابا على عراك عابر لن يشفي غليل بحثه الداخلي عن المحارب المفقود الذي تاه في لحظة الإستراحة.

□ □ □

تشرب محمد الشيدي من والده وجده الأشياء كيف كانت وأين صارت، ويدرك جيدا تجذر اللهطة - بتعبير عياد - في سلوك سعيد الريح وآخرين يتغلغلون ويحلمون أحلامهم الخاصة.

إحساس بالتهدم والعجز بدواخله لايكف، فينحرف إلى أقصى العنف والعبث عسى أن يقوده قدر ما إلى طريق معين.

قال له ضابط فرنسي بعربية ركيكة وهو يسلمه دفتراً للتوقيع عليه بعد قضاء شهر آخر بالسجن.

- "لماذا لا تذهب إلى الحرب وتموت هناك بعيدا عنا أو ترجع لبلدك جنرالا؟".

كان الضابط يتحدث عن الحرب الثانية التي انطلقت شعلتها القاسية ودخلتها فرنسا بقلب واجل. فطالبت من المقيم العام بعث رجال وشباب أشداء مقابل استقلال بلادهم، فرد عليه الشيدي ساخرا.

- "لو كنت أنت الجنرال داماد، لذهبت إلى هذه القيامة وأعود جنرالا لأقتلك، ولكنك لست ولن تكون" ثم خرج.

تعود عبد السلام أن يقضي أوقاته بين الذهاب إلى عزيبه أو التوجه إلى عزيب الحاج قاسم الذي مات هو و عياد العشي أثناء ذهابهما على متن الباخرة إلى الحج. يجلس مع أبناء الحاج وأيضا أبناء شامة المزمزية على حصير الحنين الذي لا يعرفه غير قلبين لم يتكلما أبدا إلا بالأسى الصامت.

وخلال كل أول شهر يزور أمه الفاضلة بمكارطو التي بقيت وحيدة بعد رحيل عياد، لم تشأ مغادرة خيمتها فجعل معها امرأة تخدمها وترعاها رغم أن كل أهل الدوار يبرون بها وكأنها أمهم جميعا.

عند صديقه دحمان الحجام يقضي سويعات المساء في حانوت مظلم وضيق مسقوف بالأعواد، له كرسي واحد مبطن بجلد أحمر، ذو قاعدة دائرية حديدية أمام مرآة ممسوحة وكراسي خلفية من الخشب، وطاولة قصيرة تشتتت فوقها أوراق حمراء رسمت عليها صورة الذبابة، تجمع حولها الذباب مأخوذ بالرائحة الخادعة التي ستسلبه روحه.

دحمان الحجام بدوره كان يحمل عدة الحجامة كل فجر ويتجه نحو الأسواق يبتني قيطونا. يضع كرسيا ويعلق مرآة صغيرة بعمود القيطون ثم يهيء الموسى وقرقارات الحجامة لمص الدم الخاسر من القفا، وفي المساء يجلس بحانوته يستقبل زبناء المركز وجواره عبد السلام المأهول بتذكراته التي استفاقت بداخله خلال تلك المساءات المشبعة بظلال ذات رائحة عميقة.

الحانوت المجاور لسي دحمان هو للحداد بنافوخه الذي يقف وراءه دوما، طفل أسودٌ لونه بغبار الفحم الحجري.. يد تدفع والثانية تجر، كي تخرج الريح من النافوخ على كانون الفحم وقطع الحديد التي ستتحول إلى صفائح حديدية يضعها لحوافر الخيول والحمير والبغال بعد تقليمها.

في فجر يوم سبت هاجم عبد السلام بيت بنت العلوة وأخرج ابنه محمد الشيدي مقيدا إلى بيتهما حيث صلبه في البهو غير المسقوف على سارية وكبله بالسلاسل والقنب ثم تركه سبعة أيام تحت الشمس والنجوم والجوع وشماتة الزمن، لأنه لم يعد مواظبا على الجزارة والذهاب إلى الأسواق، وفهم عبد السلام أن ليالي بنت العلوة قد رهنت زمن الشيدي وزادت في احتراقه، فلم يجد إلا هذه الطريقة وسيلة للعقاب.

في اليوم الثامن أرسلت بنت العلوة أخاها لفك حبيبها المصلوب بعد خروج عبد السلام فجرا، ففك قيوده لكن محمد الشيدي كان مليئا بغضب لا محدود، فشد أخ بنت العلوة وأشبعه لكما وضربا ثم ربطه بنفس السلاسل والقيود مصلوبا وتركه يبكي ويصرخ بعدها خرج مزهوا... وفي المساء، ودون علم أحد بما استجد، كان سي دحمان الحجام والحداد قد شفعا عند عبد السلام، فجاؤوا هم الثلاثة لفك سراحه، لكنهم ذهلوا ولم يتمالكوا أنفسهم أمام جهامة الموقف فانفجروا بالضحك وحكى لهم شقيق بنت العلوة كل الحكاية.

وقاد الفضول سي دحمان لمعرفة المزيد عن الحادثة فسأل محمد الشيدي الذي تساءل حانقا:

- كيف يجرؤ كلب مثل ولد العلوة على الدخول إلى بيت عبد السلام بن عياد في غيابه وتكسير حكم ارتضيته من والدي...؟

- وكيف سيكون موقفك لو جاءت بنت العلوة؟

عاود سي دحمان السؤال بمكر وهو يخفي ضحكة تسربت مضغوطة من بين ملامحه وعينيه. أما الشيدي فقد انخرس لأنه احتار بين جوابين إما أن يرضى بالمجازفة أو يقيدها بدورها عارية كما فعل مع أخيها.

لم يعد يعرف حدود الخراب الذي ينتشر بداخله، فاتجه إلى مكارطو عند جدته لمدة أربعين يوما عاد بعدها مباشرة إلى المكتب الفرنسي بالمركز وطلب تسجيل اسمه

ضمن قائمة الذاهبين "إلى الحرب من أجل الموت"، ليس دفاعا عن فرنسا أو إغراء باستقلال مزعوم، وإنما للهروب من التيه والتهدم.

غطت قامته الطويلة وبنيته التي توهم أنه في العشرين من عمره على سنه الحقيقي والذي يقف عند السادسة عشر.

أخذوا كل بياناته وأعطوه ورقة للذهاب في اليوم الموالي إلى مركز التصوير والفحص ثم الترحيل ليكون واحدا من خروب القيامة.

□ □ □

في الليل لم يشأ النوم أن يجد طريقا إليه، فخرج يتجول بالمركز عبر الأزقة الضيقة والنوايل المنتشرة في "نزالة الحد" الصاحية باشتعال الرغبات والشراب ورائحة الكيف والأدخنة المختلطة بتأوهات نساء يحفظن أسرار الفلاحين القادمين إلى سوق "السبت والأحد" المجاور للنوايل... فبعد أن يدفعوا ببهائمهم إلى الإسطبلات القريبة من السوق، يشترون ببذخ كبير اللحوم والخضروات والفواكه وربطات الكيف من عند مقطوع الودن، ثم الخمور من عند مدام باريجو، ويتوجهون إلى النوالات المعلومة احتماء بلذات ليلة السبت السعيرة.

كان محمد الشيدي يتأمل في كل هذا ويتمم من مخيلته مايبدو ناقصا دون أن يصف هذا العالم أهو جحيم مأهول أم جنة مهجورة؟ أحس بظلام داخل تهدم نفسيته، وقبل أن ينحدر نحو السوق، بشموعه الخجولة وسط زمن رتيب، أخرج عود ثقاب وأشعل به أكثر من نوالة، في هدوء، ثم واصل خطواته مخلفا وراءه دخانا برائحة خاصة و عويلا ورعبا عرى ليلة طافحة برغبات حرونة، فلم يلتفت ولكنه دخل السوق من حائطه الجانبي الذي تشغله حوانيت باعة الكرعين والحريرة والشاي وسباسا الكيف، والجميع في خدمة الزبناء المهووسين بالسجال والحسابات.

يمر من أمام الحوانيت مثل شبح لا يلتفت إلى شيء، وإنما لمعان الشموع

وروائح الطبيخ تتسلل إلى أنفه. عبثا تحاول جره إليها؛ فتتناهى، مع مروره، إلى سمعه صوت رجالي مجروح يدندن في حانوت ضيق يفترش، وسط مجموعة من الفلاحين. حصيرا غير مكتمل.

سطات مركز مترب أتعبه الإجهاض، وواد يجمع صدى مناحات قرون من المذابح والأدخنة.

صمت غير متعود في الأزقة رغم دوريات الفرنسيين وطلقات نارية عشوائية لاتصيب غير الخيبات المتولدة من فقدان يولد باستمرار. يدخل محمد الشيدي الزنقة التي يسكن فيها مع أبيه، ومن بعيد يتأمل بيت الريح فيشعر بكره غائل وأزلي بينه وبين الرداد بكر سعيد الريح الذي بات يسير شؤون أبيه بعد مقتل أحد أبنائه وهجرة الآخر إلى فرنسا عند أعمامه، ثم نحو أمريكا.

عاد يفكر في النائمين، وفي الذين يحترقون برغباتهم في النوايل أو الساعين إلى بيع بهائمهم على الحصير... ثم وجد نفسه أمام باب السوق ساعة الفجر، ينتظر والده. تعانقا وقبله في رأسه ويديه ثم قال له:

- اليوم أو غدا سأذهب إلى الحرب.

- كان لابد أن تقوم قبل هذا التاريخ لأنك خلقت محاربا وليس شيئا آخر.

- ولكني لن أموت هناك. سأعود.

جمل قصيرة في موضوع محدد وصمت يقيد الحوار من حين لآخر. يتوقف محمد الشيدي ويترك عبد السلام يدفع بخطواته وسط رحبة الأغنام.

دخان الحرائق في النوايل مازال يصارع، صاعدا، دون أن يكلف نظراته المتباطئة عناء النظر في الرغبات المشوية أو حتى الإشفاق على فجر صيفي مختنق ستنتحر على صباحه سيول عديدة من العرق المالح.

IV

حطب الجنة المهجورة

«مكتوب على باب السماء بأحرف من ذهب:
على وجه البسيطة لايبقى من الناس إلا مآثرها»
حافظ الشيرازي

الريح تهب بالأدخنة الصاعدة من كل شيء، ومن كل مكان... فترسم في الفضاء خرائب جديدة تتهادى وتتسرب إلى النفس لتستقر جوار المواريث القديمة.

لم تعد هناك ريح واحدة، بل رياح تنتفض وتتحول إلى عواصف لارحمة فيها.. تخرج من كل الجهات دون سابق إعلام، لا يهمها شيء غير العبث بتلك الأدخنة المقطرة للأعلى من حرائق شتى ألهمت كل الذين تعبوا من أشيائهم الصغرى والحميمة كي يرموها للإحتراق والتطهر.

يقف محمد الشيدي وسط ظلام غرفة "السيلون" في المعسكر الحربي بفرنسا، صامتا، مغمضا لعينيه الغاضبتين، في لباس داخلي أبيض، خفيف، متأملا - بعد

تسرب الرائحة إلى أنفه - في الحرائق والتهدم الصاعد والمتماثل مع خراب داخلي متفتت، فيتذكر أولاد سليمان المحترقة في قلب المزامزة، ولن يجد شيئا آخر غير ذاكرته، يقف على خيالاتها في حبسه الإنفرادي المغترب والذي يطال العساكر غير المنضبطين، خصوصا، جنود المستعمرات: الوقود الواقي من الصهد النازي، أو حطب القيامة، كما قال له عبد السلام حينما أخبره بتقييد أُسمه في اللائحة جنديا ضمن صفوف فرنسا وحلفائها في الحرب العالمية الثانية، ثم يسأله دون أن ينطق: "سلالتنا حطب أزلي من الشاوي إلى العشي إلى الشيدي، أسماؤنا تختلف ومنافينا دائرية ولكنها واحدة".

رائحة الحرائق تتسرب إليه ملوثة بتذكرات عنيفة تختلط عليه بمرويات أبيه وجدته الفاضلة، أو بالبريق الصامت من عيني لالتهم، أخته المنسية مع زوجها وأبنائها، وقد صاروا تجارا معروفين بالدارالبيضاء رغم حداثة أعمارهم. حاول الجلوس فلم يستطع وسط ضيق السيلون وظلامه المشبع بالمرج وخيوط بيضاء تشده إلى التذكر في كل ما وقع.

خمسة أيام أو سبعة. لا أريد أن أعرف. فوق الباخرة. كنا جنودا مغاربة، على البحر. جنرالات فرنسيون يحملون خرائطهم وأوامرهم التي علمونا بها كيف ننضبط كما لو أنا مجموعة كلاب للترويض. وقالوا لنا بصوت دساس.. إنتصار فرنسا هو انتصاركم أنتم. لم أصدق. لأني لا أملك قضية بالتحديد... الآن أفكر في هذا. طباخون يقدمون لنا لحوم الخيول والحمور، فكنا في الليل وسط البحر مثل الشياطين، لحظتها فكرت - ولوحدي - في إغراق الباخرة... وصار حلمي هو أن أهدي للبحر كمشة المحاربين الأشقياء.

مازالت روح بنطاهر عبر صوت عبد السلام تنمو باستمرار في نفس الشيدي، وحينما نزلوا بمارسيليا، كانت الشاحنات واقفة لنقلهم إلى الحدود الفرنسية-الألمانية فنادوا على الجنود المسجلين في لائحة الممارسين للسياقة، ومحمد الشيدي واحد منهم

رغم جهله لها وعدم ركوبه أية شاحنة في كل حياته القصيرة، سمع باسمه فتعمد أن يتخلف حتى يسوق آخر شاحنة، وفي نفسه رغبة جامحة لسياقة الدبابة كما سيبوح لصديقه القدري الحطاب العبدي.

- ولماذا الدبابة هنا بمارسيليا ؟

- حتى أدمرهم وأتجه بها نحو باريس التي أشبعوها بكاء وطبخوا رؤوسنا بسحرها..

أدار محرك الشاحنة، وعلى يمينه، بغرفة القيادة، الحطاب العبدي، جندي في مثل سنه، يحمل نفس ملامح العنف البادية فوق سمرته الشاحبة. يستطيع أن يخلق خلواته وسط الضجيج فيلوذ بالصمت وهو يتأمل الأدخنة الصاعدة من سيجارته وهي تلتقي مع أدخنة سيجارة الشيدي.

على ظهر الشاحنة، في الخلف، أزيد من أربعين جنديا تكدسوا جالسين فوق أحلامهم في أن يصبحوا جنرالات أو فزاعات ميتة، أو بتفكير سليم - في انتظار المحتمل حتى يسموا محاربين. أما الحافلات الأخرى التي انطلقت فإن أحلامها -بالتأكيد- لا تدور أسرع من تلك العجلات التي لا تفعل شيئا غير الهرولة وراء سيارات جيب الرمادية الحاملة للضباط والجنرالات الفرنسيين، وبالقرب منهم شاحنات تحمل الأكل والخرائط والذخيرة والأطباء والمهندسين، وخلف كل هذا الطابور من الشاحنات توجد سيارة جيب للمراقبة والاتصال بالمقدمة.

□ □ □

أثبت سيجارته في فمه ثم بدأ يبحث برجليه ويديه عن الطرق التي تجعل الشاحنة تسير، فاندفعت بسرعة - كما لو قفزت - ثم توقفت بفرملة قوية فسمع - إثر ذلك - صراخا وسبابا من الجنود الخلفيين.

انطلقت الشاحنة بمساعدة الحطاب الذي ظل صامتا، بينما الموقف كان كافيا ليبلل سيجارة الشيدي فيمضغها ثم يرميها تلتصق بالزجاج الأمامي... ويطلب من الحطاب أن يشعل له سيجارة أخرى.

دون جدوى، كأنه لم يسمع شيئا، أو لم يبال بكلامه، فهو مشغول بوجع في ضرس بفكه العلوي جهة الشمال، يتحسسه من حين لآخر. أدرك الشيدي ألم صديقه فأخرج من جيبه قطعة سواك تعود مضغها كلما كان سعيدا إلى جانب حبة قرنفل تترك على لسانه رغبة خاصة تلهمه إحساسا غامضا ولكنه لذيذ.

لم يشأ الحطاب تسلم السواك وإنما سحب خيطا رقيقا من كرسي الشاحنة. أدخله بفمه وجاهد حتى ربطه بالضرس الذي يوجعه، وبعدما قبض بطرفي الخيط، جر بقوة، فاتحا فاه ومثبتا فكه الأسفل عن طريق شد ذقنه بيده الأخرى.

رماها دون أن يتأملها ومضغ ملحا أخرجه من جيبه، ثم تفل أكثر من مرة حتى جف الدم، بعد ذلك أخذ السواك، وضعه فوق الجرح وأعقب كل ذلك بسيجارة ستخفف أدخنتها من وجعه النابض.

- هل تريد أن تستريح؟ سأل الشيدي صديقه الحطاب بلهجة لا تخلو من مؤامرة حينما وصلت الشاحنات بعد مسافة طويلة إلى جسر عالي بني فوق المروج والغابات وسط الجبال.

عاود الشيدي السؤال وقد توسطت الشاحنات الجسر: "هل تريد أن تستريح وتنسى أوجاعك؟" ابتسما بعدما التقت نظراتهما وأطفآ سيجارتيهما ثم داس الشيدي بقوة على الدواس محولا المقود كاملا، وبسرعة، إلى الشمال... آنذاك سمعا صوت ارتطام هائل كسر الواقي الحديدي للجسر فسقطت الشاحنة بمن فيها وسط صراخ لامنقطع للأربعين محاربا لم يصادقوا أو يختاروا أسلوب المؤامرة.

شد الجنرال رأسه بيده الإثنتين صارخا في سائق "الجيب" أن يتوقف ليرى

أولى حروبه في هذه البداية.

إحدى عشرة جثة هبطت إلى حتفها وجرح حوالي النصف الذين تشتتوا فوق الأشجار أو اختبأوا ظنا منهم أن هتلر خرج لهم من الوادي، أما الشيدي والحطاب فإنهما انهمكا بكل جهدهما في إخراج الجرحى وحملهم عبر سلم من القنب.

لم يكلموه ولكنهم وزعوا ما تبقى من المحاربين على باقي الشاحنات ودفنوا الجثث، ثم حملوا الشيدي وصديقه في شاحنة أمامية.

- لقد تناسوا أن الموت هو لعبة الحرب التي دخلناها منذ زمن طويل.

قال الحطاب العبدي لرفيقه الذي بدا متهورا عابثا.

- بل الذين نسوا الحرب هم من ماتوا تحت الجسر. (رد الشيدي بلا مبالاة ومكر).

□ □ □

وصلوا المعسكر في الحدود بين فرنسا وألمانيا، فجاء الجنرال الفرنسي إلى الشيدي وخاطبه بفرنسية لم يفهمها ثم تركه ومضى حتى جاء المساء. جلس الجنرال نفسه رفقة اثنين من الضباط وترجمان مغربي قال للشيدي بأنها محاكمته التي سيخرج منها بريئا أو يعدموه.

عن طريق الترجمان سألوه عشرات الأسئلة حول درجة تعمده في حادث الجسر، فرد يخاطب الترجمان: "سأقتلك أنت أيضا، قل لهم أني تعمدت بداية الحرب. لاأعرف السياقة. قل أيضا أني مفتون بتجريب الموت الذي أعرفه أكثر من حياتهم..."

واصل الشيدي يخطب فيهم، وحينما انتهى.. تكلم الترجمان بمعان جديدة بحيث قال لهم بأن مقود الشاحنة لم يعد مطواعا في يديه فانحرفت بغير إرادته.

لم يصدقوا الترجمان لأن نبرة الشيدي الساخرة، وملامحه القاسية والزبد المتطاير من فمه هو عكس ما ترجمه الترجمان، أما شهادة الحطاب الهادئة فلم

تزدهم إلا حيرة... وأخيرا وقبل حلول الظلام رموه في "السيلون" لخمسة عشر يوما.

□ □ □

رصيد المحاربين من المغامرة لا ينفذ، والحرب تنتقل بمعسكراتها من مكان لآخر. أما المعسكر الذي ينتمي إليه محمد الشيدي والحطاب فإنه بعد تقسيمه صار متكونا من مائتي وثلاثين محاريا أغلبهم من الجنود المغاربة والباقي من السينغاليين والفرنسيين بالإضافة إلى الجنرال شارل لوبي وستة ضباط، وطبيب وممرض وتسعة مكلفين بالطبخ.

عادوا إلى ضواحي باريس للدفاع عنها من الاحتلال الألماني، وحينما استقروا هناك أطلق أحد المحاربين الفرنسيين على معسكرهم اسم "دون كيشوت الأعمى"، وبعد ذلك تعددت الأسماء حسب الرغبات والمزاج.

في حربهم داخل المدن كان معسكر "دون كيشوت الأعمى" يحط عتاده خارج باريس في غابة وسط الأشجار والخنادق والجبال حيث الفرص متاحة لفعل كل شيء.. ولم يكن الحطاب والشيدي يبحثان إلا عن السجائر النادرة وزجاجات الخمور المعتقة وسط اشتعال النار بينهم وبين النازيين، وفي كل استراحة يرجعون بموتاهم وغبارهم حتى تعودوا ذلك مع مرور الأيام والليالي.

سنة ونصف، أو تزيد بقليل، ومعسكر "دون كيشوت الأعمى" يحارب الوجود الألماني داخل باريس أو من خلال ضواحيها، فلم يعد الجنرال يقوى على تمثيل نفس الدور القديم، واكتفى بالبقاء في الغابة ينتظر الليل وعودة المحاربين حتى يخطب فيهم خطبة مرتجلة، أما الشيدي والحطاب فقد تسلل الملل إلى نفسيتهما، ثم فكرا في حرب أخرى حيث أقنعا الجنرال بأنهما سيحاربان النازية بالليل لإتمام ومواصلة ما يبدأه جنود النهار.

وقف الجنرال والسيجارة بفمه. وضع طربوشه وشد لباسه بشكل يجعله منسجما،

ثم قال لهما: سأدرس المسألة مع الخبراء، بعد ذلك أعرضها كمشروع للثورة والتحرير على القيادة المركزية وعلى حلفائنا بانجلترا و أمريكا.

أمهلاه حتى الصباح ولما سألاه عن الرد، قال لهما بأن هناك سبعة سيناريوهات وثلاثة مواقف وحيثيتين لا بد منهما... قاطعه الخطاب العبدي يطلب اختصار النتيجة، فقال الجنرال بلغة حاسمة... النتيجة أن الحلفاء فيهم من لا مانع لديه والبعض الآخر يتحفظ، وعليه، يمكنني، منذ الآن، أن أتحمل المسؤولية وأعطي أوامري كي يتحول معسكرنا للحرب الليلية ونستريح بالنهار.

انفتحت الطريق للحرب الأخرى، فكانا يتسللان إلى بيوت باريسية حمراء، في باطن الأرض، تعرفا عليها خلال الشهور الماضية، يسهران بداخلها حتى الفجر ثم يرجعان بعد تفريغ الرصاص والقنابل.

كان الشيدي يستفيق في منتصف النهار ثم ينزل إلى باريس ليتصيد قتلاه في المساء كله، وفي الليل يلحق به الخطاب إلى البيوت السفلية يستمتعان برغبات عنيفة وهَوْجَاء مع يائسات ومجنونات.

لم يعد المعسكر محكما في تنظيمه بل صار سائبا واختلت علاقاته، فخلال مساء أعمى وسط باريس والشيدي لوحده يبحث عن طريدته، لمحته دورية من جنود ألمان، حاول رميهم بالقنابل فلم يجد، ولما هم بتصويب رشاشه لم يجده أيضا واكتشف، من عبثه، أنه لم يحمل غير عصاة التقطها من الطريق، فلم يبق أمامه إلا الفرار بين أحياء ضيقة ثم إلى شارع بيرسي الذي تسلل منه إلى محل لبيع الورود.

إغريقية تقيم بباريس وتبيع الورود مع والدتها في ذلك المحل التجاري الصغير.. ولكنها وحدها، على الدوام، فيما أمها ترابط في الدير الموجود في الشارع الخلفي، تتعبد طول النهار.

دخل الشيدي فارا من الموت إلى حياة أشد رحابة وسط الورود، فتفتحت في

قلبه أديرة شتى ذات أبواب من شقائق النعمان والجمرة.

- "لا تفتر علي. لم يتفتح قلبي لشيء فقد تبخرت العواطف والأحاسيس. أنا الآن بدون قلب. فقط، رغبة للقبض على وجه المفارقة بين بشاعة الموت في الشوارع والمواخير تحت الأرض، وبين هذا المحل المليئ بالورود وفتاة يونانية من سلالة آلهة الإغريق. الرغبة دائما لها عقل خفي... يطمح لامتلاك فسحة التطهر".

احتال على الأغريقية بلغته وفرنسيته العاثرة في معانيها، أقنعها بفتوة حبه، مثلما أقنع الحطاب العبدي -فيما بعد- كي يخبر الجنرال والضباط بأن النازية اعتقلت محمد الشيدي رقم 43774. بعد ذلك رتب مشهدا دقيقا يليق بمحارب لايعرف لماذا جاء إلى الحرب.

يوم الأحد مساء طرق باب منزل الإغريقية الذي هو من ناحية شارع بيرسي قرب هري كبير ومشهور لصنع الخمور. فتحت له الباب، فتعمد اللهاث والإدعاء بأن جنودا نازيين يطاردونه. اندهشتا، الأم التي كانت تقرأ في الإنجيل، والفتاة التي كانت بالتأكيد تفكر في أجدادها الآلهة، فلم يمهل الدهشة امتدادها وباح لهم بأنه قد أوحي له بطرق بابهم.

التفت الشيدي إلى الإغريقية وقبل يديها ثم قال لها بأنه منذ قدومه إلى فرنسا، والله يدفع به إلى أحضان الأغريقية، وأكمل التفاته إلى الأم محولا الخطاب إليها يطلب منها أن تبارك علاقته بابنتها وتشكر الرب على هذا اللقاء.

لم يبحث عن اسم الأغريقية لأن أعماقه ستختار لها اسم **ريمة**: صورة مشبعة بشهوات **فيدرا وأرتيميس**، وهو غارق في تأمل بياضها ورقتها وخفة روحها... ومع الأيام كان يخترق عاداتها ويعبث بالكثير من البديهيات التي كانت تقدسها، فصارت تسهر معه الليل كله للشرب والرقص والإستماع إلى كلامه المختلط بعربية باذخة إلى جوار عثرات فرنسية.

لم يكن يخرج في الأيام الأولى من البيت، وحيدا يبقى بعد انصراف ريمة إلى ورودها والأم **هينة** -كما سيسميها- إلى معبدها، ولما شعر بالملل رتب نظاما جديدا تذهب فيه هينة إلى المعبد صباحا، وإلى المحل بعد الزوال حتى تتفرغ ريمة للشيدي الذي لايستفيق إلا ساعة الظهيرة.

لم يمض شهر على هذا الترتيب، فاقترح الخروج من سجنه معها مثل أي زوجين بلباس النبلاء يتجولان في فضاءات آمنة.

تأكدت ريمة أنه ترك الحرب وتفرغ لها، فسألته عن حياته بالمغرب وعن أرض الشاوية التي ملأ رأسها بأعاجيبها.

ردا على نظراتها تجاهه كان الشيدي يحكي لريمة وهما في الشارع يدا في يد، عند بائع الخبز. في الأوبرا لمشاهدة عرض رقص حزين يبكي باريس. في أعلى برج ايفيل. ثم يواصل حكيه في المساء حينما تكون أمها جالسة تقلب في أوراق الإنجيل.

حاول إيهام هينة أنه من سلالة الأنبياء، وأن ولادته كانت عجيبة من العجائب التي يتبرك بها أهل الشاوية، وقد جاء إلى فرنسا لجلب الانتصار لهم.

بديهته حاضرة في إيجاد الأجوبة لكل الأسئلة المحرجة، فقد سألته، مرة، فيدرا وهي تضحك:

- ولماذا لم تطرد بنبوءتك الإستعمار عن بلادكم؟

- نحن ياريمة من دعوناهم حتى يجيئوا لنا بعلومهم ثم سنطردهم بعد حين.

لعبة مسلية وعابثة في زمن الحرب، وما رواه الشيدي لفيدرا الإغريقية أو ماسيرويه سرا أو علانية، لها وحدها أو صحبة هينة، والدتها، كان سلاما باردا أنعش الذاكرة من نسيان أخضر.

ريمة لن تعودي إلى قلبي إلا يوم أستحقك. وسأقول ما قاله جدي الأكبر، والله لو خيروني بين عالم كل أرضه ذهب، فوقه شمس وقمر، وبين شاوية من تراب ما

اخترت إلاها.. وأنا أختارك، وأختار مآثرك التي دونت بدم قلبي على باب السماء، برائحة الجنة على باب قلبي المتحرق.

أعرفك منذ الأزل. منذ تاريخنا الملحمي الذي يبدأ من سيدي علي الشاوي المقدس ذات يوم أحد من شهر أكتوبر عام 1768 حينما صار سلطانا على الشاوية بل امبراطورها التاريخي، في مثل عمري هذا، لكن قوى الشر والشياطين ستتآمر عليه وتقتله. أما روحه فهي سارحة في أرضنا المباركة تراقب وتتفكه، في مرارة، مما يجري داخل جنة مهجورة.

أبي قاهر وعنيف تزوج ست عذارى ولما لم ينجبن دفعهن لرعي مائة جمل من نوع الجمال المكًارية، بعدما حلق شعورهن وطلى أجسادهن بالقطران، يبتن في الزريبة ويأكلن أكل العبيد والإماء.

أقسم أنه بعد الست زوجات سيقتل كل من تزوجها إذا لم يخلف منها.. فأفتى عليه أحد شيوخ القبائل بالزواج من فتاة صبية، يتيمة، مات كل أهلها في حروب القبائل الغادرة، ولم تبق لها غير أختها رحمة المتزوجة من خماس، تسكن بدوار يبعد عن قبب والدي بمسافة سبع ساعات.

الصبية اسمها شامة. تزوجها، عبد السلام، كما سيقول لي، ولكن الزمن غدار يرميه بسهام السنوات فمر عام أول وثان ضاق صدر عبد السلام فقال لها: يا شامة قلبي، أيتها المرأة المباركة أنا أعزك دون العالمين ولكني سأقتلك ثم أقتل نفسي...

ناحت وارتمت تحت أقدامه تقول له اقتلني ولاتفعل بنفسك شيئا ياسيدي ورجلي وتاج الشاوية الفخورة بك. لكنه انسحب وهو يصرخ في وجه كل من يجده في طريقه، ركب بغلته وساح يتفقد الألف وسبعمائة هكتار التي يملكها.

زبيبة وصيفة شامة وحارسة أسرار البيت الكبير، سوداء كبيرة السن، كانت منذ دخول شامة البيت مثل أمها التي ترعاها، فنسج الحب والحزن بينهما ألفة الأم بابنتها...

وإلهام داخلي جاء ليؤطر الموقف فرحلت زبيبة عند أخت شامة تخبرها بالموت القادم، وبرسالة أختها تقول إن الله رزقها ستة أطفال، فليتها تحبل من أجلها، ثم أفهمتها الخدعة، حتى تعاطفت مع شامة اليتيمة وقالت لها احسبي للحبل مع منتصف الشهر.

لاشك أن شامة كانت ذات جذور إغريقية هاجرت منذ عصور خلت، وبالتأكيد فإن عقلها كان بحجم عقول عتاة الدهاة في الشاوية.

بعد شهر قالت شامة لعبد السلام إنها بدأت تحس بتغيرات داخل رحمها، أسر لها أن تنتظر اكتمال القمر القادم، وعادت زبيبة لتؤكد الحبل وتسهر، مثل أي عابدة وفقيهة زاهدة في محراب الرب، على فتل حبل ظاهري في شكل فخ سيصطاد طفلا من رحم آخر.

في الشهر الثامن وأيام قليلة قالت شامة لزوجها إنها على وشك الوضع ولابد أن ترحل عند أختها للولادة هناك، ضمانا لسلامة الطفل من سحر وكهانة الضرات الست المطليات بغضبه الأسود على الأرض.

أوصلها مع زبيبة والمال والبهائم وكلف أربعة من عبيده بخدمتها والذهاب والإياب يوميا لإخباره بأية تفاصيل.

انتظار ملغوم يفتك بالزمن وبأكباد مشبعة بأحلامها المتعارضة حتى جاءت لحظة خرج طفل شاحب من عمق الأحلام المحمولة في أكثر من فؤاد، فوعي أنه خلق بالتأكيد من أجل خدعة، التفت نحو رحمة، أمه، ثم إلى خالته شامة التي تتحسس رحمها وتتوجع أو أنها تتوهم.

لم يضحك ولكنه بكى، وكل طفل يبكي لأنه يعرف.. ويسكت حينما يصير جاهلا، أما الأختان فإنهما لم تعاودا الحديث في الطفل إلى أن علمت رحمة بخبر قدوم عبد السلام لحمل شامة وابنها!

قالت لها: يا أخيتي، نحن معا أختان نزلنا من رحم واحد لأم واحدة، أما الذي

نزل من رحمي الآن فهو من رحمي، ولن أستطيع التفريط فيه حتى ولو جاء من يبدل تراب حقولنا الصغيرة إلى ذهب، ووضعوا الشاوية وسادة تحت رأسي. سامحيني إن كنت قد خرفت معك من قبل. للوحم يا شامة أحكامه المجنونة.

لم تجبها. لم تجادلها. لم تفكر حتى.

لم تشأ أن تعي فتحس بالإحباط وتتنازل، بل تركت للإلهام وحده، مدعوما بالقدر الذي يؤسس للقناعات، حق التصرف والإستمرار فيما بدأه.

الإلهام والقدر لونان يشتركان في الدفع بالحقيقة والزعم على سكة واحدة والذي يصل منهما يقتل الآخر.

قامت شامة في ذلك الصباح الميت من رحم ليل مخادع وأخذت عودا من شجر الزيتون في حجم طول طفل، لفته بالصوف، بعدما ذرته بالتراب ثم قصت واحدة من ضفيرتيها، اليمنى تحديدا، وربطت رأس العود بها، ولفته مرة أخرى بثوب أبيض فبدا كما لو أنه طفل نائم ينمو ببطء، هامدا جوارها، كمجازفة من الإلهام والقدر يستمع إليها وهي تبكي وتحكيه حياتها بعدما تيقنت من موتها مع قرب وصول زوجها، ولابد لها من تقديم اعترافاتها وجرف كل أحلامها الراقدة بداخلها بعود زيتون أخضر وضفيرة سوداء... طفل كانت تتمنى أن تسميه محمد بن عبد السلام الشيدي الشاوي ولكن!

الصباح لم يمسح دموعها وقد بلت كل الإعترافات والأحلام. فلبست الحيك ووضعت وليدها -اللفة- بين يديها ونادت زبيبة أن تنتظر سيدها وتخبرها بوصوله.

خرجت شامة وقالت بلهجة غاضبة لم يعهدها فيها:

- هيا ياسيدي عبد السلام، لا مكان لي هنا مع أختي.

- اتركينا نستريح ونذبح الذبائح لفحلنا الصغير ونشكر رحمة وزوجها.

- سامحني ياسيدي، هيا نرحل الآن.

فرحته بالوليد جعلته متسامحا صبورا على غنج وغضب شامة، فدخل لوحده

يسلم على أهل البيت وقد أحس بخصومة بين الأختين، فلم يشأ السؤال عما وقع وإنما همس للزوج بأنه سيعود قريبا ويصلح كل شيء.

في الطريق جعل عبد السلام كل مرافقيه يتقدمونه بمسافة حتى يتسنى له الحديث كما يشاء مع شامته المباركة المسعودة.

قال لها كلاما كثيرا عن سلالته وعن استمرار الجذر الحي المشتعل.. لكنها لم تجبه ولم تلتفت إليه كما لم تشأ تذكر ما مضى وتمنت لو أن كل ما يقع هو حلم فقط.

وصلا بعد أربع ساعات من المسير على جوادين أصيلين إلى عين ماء محاطة بأشجار وسدرات ودوم.

- ننزل هنا آلالة شامة كي نشرب وترضعي الفحل.

نزلا واتجه عبد السلام يشرب الماء، وحتما سيعود ليقبل الطفل ثم يخرج ثدي شامة ويدعوه لرشف الحليب. هكذا فكرت فاتجهت قرب السدرة. وضعت اللفة البيضاء جوارها ثم جلست مقرفصة تبكي بعدما وضعت رأسها بين رجليها حتى لاترى شيئا، هل تفر أم تبقى؟

هنا يا فيدرا لن يصير حبك يائسا، ولن تحسي بإحباط شامة الظالم، لأن الله يعرف كل شيء ويقدر على أن يهب الحياة للحب وللبيت القديم وأيضا لأعواد الزيتون والضفيرة السوداء.

تقدم عبد السلام من اللفة، حملها بعدما بسمل فسمع صراخا ثم فتح القماط الأبيض.. آنذاك صاح سبحان الله الذي سوى طفلي في صورة ملاك.

لاتعرف لماذا وكيف قامت مذهولة ثم سقطت في إغماءة طويلة، وحينما استفاقت، قدمها الوليد الذي كان يبحث بيديه الصغيرتين عن ثدي شامة وقد فاض بالحليب الساخن.

صعق وهو يسمع منها كل الحكاية، فلم يصدق إلا حينما سأل زبيبة وعاد إلى

رحمة، لحظتها طلب منها أن تعيد عليه الوهم الذي تحول إلى مشهد مذهل ففعلت وسجد عقب ذلك حمدا لله وبكى أول مرة في حياته حتى روى الأرض التي جلس عليها.

أنا يا ريمة ذلك الطفل الذي أنزله الله قرب عين ماء وسدرة ودوم في حقل من حقول الشاوية إنقاذا لروح إمرأة يتيمة إسمها شامة أمي وحاضنتي أنا ابن السماء وعود السلام وخصلة المحبة، وإسعادا لنفس مضيومة هي نفس عبد السلام الشيدي والدي، وإنقاذا لسلالة علي الشاوي المقدسة روحه في السماء.

الآن وجهك يا ريمة هو وجه أزمنة الأساطير الجميلة التي تفسر وجودنا، لكن يصعب علي تفسير كل شيء عدا ما يقوله أبي لي بأنني سليل جدنا الشهيد وكل الآلهة الشامخة.

□ □ □

نسي محمد الشيدي، وهو يحيا وسط عوالم وردية، أن يستعيد نبوءاته الخارقة في منفى آخر.

كل مساء قبل الغروب، ساعة بدء الطوارئ، كان يلبس أجمل ثيابه الباريسية التي أخذها من محل كبير ومشهور لشخص اسمه بييردي كَال. يداهما متشابكتان، فيدرا في لباسها الأبيض المنقط بالوردي، يتجولان قليلا ثم يشتريان بعض المأكولات ليرجعا إلى مهدهما الأول.

أربعة أشهر خلت، سمع بأن معسكر "دون كيشوت الأعمى" الذي ينتمي إليه سينتقل إلى الشمال، وربما حارب داخل ألمانيا.

- لا تمش أرجوك أيها المحارب القديس.
- أنا جئت هنا من أجل رسالة للموت، لابد أن أبلغها إياه.
- أنت زوجي والرب يشهد.

- وأنت زوجتي وأحبك أكثر من الحياة.

ابق ولنستبدل اسمك من **محمد** إلى **تسيوس**، ونبدأ حياة أخرى.

- إننا بدأنا منذ الأزل وسنقف في الأزل أيضا.. أترك معك تسيوس وأحمل الشاوي بداخلي حتى أعود؛ البيت القديم هو المكان الذي سنخبئ فيه حبنا كي لايتهدم، أو نضعه في غابة الأعشاش بالكهف الأسود ليتحول إلى كنزنا الوحيد. ولا أعرف حينما أعود إليك ملطخا بدم البراري هل تغفرين لي تلك البراءة؟ أو حين أعود إليك دافئا، في عيني نار المحاربين، ولوعة حراس الولي الصالح المنسي بين حجر ودوم.

لم تستطع إقناعه، وفي المساء عادت الأم فعلمت بما دار بينهما، وحاولت الكشف عن آخر ورقة قبل مشهد الوداع:

- أنت ذاهب يا ولدي، لكن.. بالرب، اعلم أن فيدرا حامل منك في شهرها الثاني، ولم ترض أن تقول لك شيئا عن **افجينيا** التي في بطنها.

اعتقدت الأم وهي تتكلم وتشرح أن المشهد سيكون إغريقيا محضا، لكن الشيدي قيد كل الإحتمالات، معتبرا أن ماسمعه هو مجرد دعاء عادي، فلم يفعل غير طمأنتها بعودته حينما يبلغ رسالته إلى الموت.

قال لها مستطردا... هل ستختارين، بدورك، بطن رحمة الخصيب أم ستجرين بطن شامة الطاهر المقدس؟

تواصل الحوار بينهم حتى منتصف الليل حيث سرق السهو جفون ريمة فنامت في غبن وأسى. يتسلل إلى غرفته فيخرج بلباسه العسكري الأول تاركا كل أدواته وأسلحته ولم يحمل إلا صورة له مع فيدرا في شارع بيرسي قرب هري معصرة الخمور.

قبل خروجه كانت هينة جالسة في الظلام، فتقدم نحو الباب وقال لها دون التفات ويده على المزلاج:

- سأعود يا أمي... وإذا وضعت ريمة الإغريقية ذكرا فسموه "علي"

أمـا إن جـاءت بنتـا فسموهـا شـامـة.

□ □ □

خـرج الشيـدي في ذلك الظلام نحـو المعـسكر الأعـمى، وفي الطريق طلى كل ملابسـه بالأوحال وكذا وجهه، وبمقصه قص كل شعره النابت في شهور العز وقـام يجري كل تلك الكيلومترات الفـاصلة بين شارع بيرسي بباريس والمعسكر، يجري حتى وصل منهوكا والعرق يتصبب منه بدون انقطاع، فتلقفوه وحملوه إلى الجنرال.

رفض الإستحمام أو النوم قبل أن يحكي لهم وهو في حالتـه الرثة تلك، فاختلق حكاية فراره من المعسكر النازي مدعيا أنه لم يتذكر المكان، وإنما يتذكر حينما حملوه في وضعية إغماء ورموه في دهليز ببيت كبير وسط باريس رفقة خمسة من الفرنسيين، قـتلوهم بعـد شـهر ثم جـاءوا بآخرين، منهم يهوديان أحرقـوهم، "وقـد عـانيت كل هذه الشهور من الموت الداخلي".

- ولماذا لم يقتلوك؟

- لا يقتلون جنود المستعمرات الفرنسية.

- وكيف هربت؟

- وجدت الباب مفتوحا عن طريق النسيان، فخرجت وأنا لا أعي شيئا.

- هل تعرف المكان الذي هربت منه؟

- لا، لأني لا أعرف باريس، وحينما خرجت تهت أربع ساعات بين دروب الظلام حتى خرجت للضاحية.

أشبـعوه أسئلة في تفـاصيل كـثيرة دونوها ثم كـرروا عليـه نفس الكلام، وكـان الشيـدي يجيب بانفعـال ويضـحك بداخله مـن هؤلاء الذين يريدون تحـرير مدينتـهم بناء على خيالات محارب شاوي.

بعد أسبوع حمل دون كيشوت الأعمى محاربيه إلى داخل التراب الألماني، القريب من الحدود الفرنسية حيث عسكروا هناك مختبئين في غابة عرشت أشجارها الصنوبرية والميموزا والإبزار وأعشاب ملأت الفضاء على امتداد طويل في شعاب تصب في واد أخضر، فحفروا الخنادق والبيوتات تحت الأرض، ساعدهم في كل ذلك كثافة الأشجار وتشعب الممرات وسط الجبال.

في الليل يخرج المحاربون وقد صار رقمهم مائة وسبعة عشر فقط، عبر ممراتهم السرية نحو مهامهم الروحانية، يهاجمون جزءا من المدينة، يغتصبون ويقتلون ويسرقون ثم يعودون من طرقهم الشتى محملين بروائح كثيرة من الأنواع والألوان.

هما معا، اتفقا على عدم الإمتثال لأوامر الجنرال شارل لوبي والضباط الآخرين حول الإغتصاب والسرقة وقتل الأطفال والنساء والعجزة والفارين والأسرى، وحينما كان الحطاب العبدي يسمع صراخ الألمانيات الشقراوات وهن، عنفا، تحت لهاث الإغتصاب والضرب، يتمنى لو أوتي العتاد كله لإبادة كل المعسكرات الفرنسية، لهذا وخلال معركة ليلية في الشوارع والدروب، تفجر فيه الدم وساح الموت فاحتلوا المكان في لحظات الفجر، فَهَمَّ الحطاب إلى منزل سفلي تخرب، يبحث عن جرعة ماء، فلاحت أمامه مرآة مكسورة بجوارها امرأة، تهدمت نفسيتها وتكسرت، منفوشة الشعر تنتحب بعدما اغتصبوها وسرقوا كل ما لديها ثم تركوها جزءا من الخراب.

أحس الحطاب بجراحها القريبة من أشواقه المخربة، فدنا منها، حيث ازدادت انكماشا وارتعادا ونحيبا، ثم حاول، بهدوء، أن يفهمها، في مشهد رومانسي بارد، وبعربية اختلطت بمفردات فرنسية وفتات ألماني، أنه لا يريد بها شرا. رفعت رأسها لتتأكد من بدلته الفرنسية ثم عادت إلى انكسارها.

أجلسها بعدما أعاد ترتيب البيت وسألها حينما اطمأنت إليه عما فعلوه بها ثم عبر لها عن أساه وتأثره، آنذاك التحق به الشيدي فودعاها.

في الليلة الأخرى عاد الحطاب إليها وحده يحمل لها بعض السلاسل الذهبية وبعض الأكل الذي تناولاه معا في مشهد بدأت الحرارة تدب فيه.

- أفديك ياروزا بكل فرنسا.

قال لها في تأثير بين، ثم قام وكتبها بالفحم على حائط الصالون.

توطدت نسائج القيم النبيلة بينهما لعلاقة رومانسية، بين حطاب في غابة حرب، حطبها المشاعر والقيم والأخلاق، وبين امرأة في الرابعة والثلاثين، تكبره بأربعة عشر عاما، فقدت زوجها الذي مات وهو في الطريق إلى روسيا محاربا. محامية متوقفة عن العمل مثل غيرها في هذه الظروف الإستثنائية.

أما الشيدي، الشاهد، بحضوره الدائم، فهو يغذي ذاكرته بهذه المشاهد ويستعيد من خلالها وجهه ووجه فيدرا الغارقة في أزلها.

□ □ □

وهما في الطريق نحو الجسر أول مرة حينما رميا الشاحنة بعساكرها، سا ءل الشيدي نفسه: هل يمكن للروح أن تخاف الموت؟ وهل يمكن للحب أن يخش النسيان؟.

أمام روزا يعيد السؤال عليها فتذهل وتسألهما بعدما استعادت روحها المرحة وثقتها.

- هل أنتما محاربان أم... ماذا؟

- أنا ذراع الإغريق الذي سقط في الشاوية، وجئت لأحارب الأوهام التي تركها جدي.

(رد الشيدي وقد اغتبط بالدخول في هذا الحوار الذي يعطيه فرصة للحديث عن سلالته وأرضه).

- وأنا ظل هذا المحارب الشاوي أو نصفه الذي لا يمكنه الإكتمال في الحديث

أو الواقع إلا به. (قال الحطاب العبدي).

استطرد الشيدي مستدركا: جئنا من أجل الموت بل من أجلك جاء الحطاب. بل من أجل الإغريقية جئت... فهل هناك خطأ في رسالتنا، وهل هناك أعظم من أن نحمل أرواحنا على كفوفنا ونهاجر بحثا عن حلم نستدفئ به من جفاف المشاعر.

الحرب تستمر والشهور تتعاقب كأنها حلقات تتناقص والجلسات في بيت روزا طقس يخترق ركامات الموت والأدخنة والرتابة، لكن روزا بصوت ناشف من كل ريق أخبرتهما بأنها سترحل إلى مدينة بون عند أمها.. وأضافت بأنها تعرف حدة الصدمة التي ستؤلم الحطاب كما ستصيبها.. ودعته لو يرحل معها إلى الأبد. لم يعانقها لأنه بكى مثل طفل وجلس فجاءت وعانقته في لحظة عالية وحارقة، أعطته سلسلتها الحاملة لصورتها، وقالت للشيدي خذ ما شئت فإني تاركة كل شيء.

لم يرد عليها. قامت وحملت ساعة حائطية كبيرة قدمتها له عامرة بذكريات زمنهم معا.

الحرب رهيبة، هكذا شعرا بالتعب وهما يعودان إلى معسكرهما الأخضر.

علق الشيدي الساعة على شجرة خروب تعود الجلوس قربها، ثم ارتمى وأغمض عينيه يستمع إلى دقاتها، وإلى تأملات الحطاب التي لم تنقطع مع مشهد الوداع. مسلوب لأنه لم يجد لغة يقول بها... **هل أنت الآن روزا أم عبدية؟ ولماذا تريدين أن تجعلي مني احديدان آخر؟... والسلسلة بصورتك هل هي القيد الذي ربط به عبد السلام الشيدي ابنه محمد لأنه أحب جسد بنت العلوة أم هي جلدك الذي سأضرب عليه الثلاث دقات الأخيرة؟**

لا أعرف. ولن أعرف هجوم هذه الوجدانات على قلبي -جرف الملح- النازف. حتى صرت أنا وهذا المحارب القديم حطبا للجنات المهجورات التي تركناها أم التي نتخيلها.

ساعة خشبية مستطيلة في حجم ثلاثة أشبار طولا وشبر واحد ونصف عرضا،

لها باب زجاجي ينفتح على تلك الدائرة ذات الأرقام الرومانية بعقربين حديديين بطلاء أسود. تشغل نصف المستطيل من جهة الأعلى، أما الجزء الأسفل من الداخل فيتدلى منه نواس من نحاس أبيض يتمايل باستمرار.

في الدائرة التي تؤشر للزمن، هناك ثقبان عرضيان في الأقصى جوار رقمي ثلاثة وتسعة، وبحديدة صغيرة وضعت بالداخل في مكان مخصوص لها، يتم ملء دائرة الزمن ودائرة الرنات التي تدق بحسب عدد الساعات.

الإطار الخارجي من خشب ذي لون بني نحتت عليه رسومات فرسان وأعمدة وحروب، وفي الأعلى براق نحاسي بجناحين من ريش يهم بالطيران.

٧

عبدية.. كيف تهدربت أشواقي القديمة؟

«اللهم نعوذ بك من فتنة الكلام»

لسان عربي

بقامته القصيرة التي لاتتعدى مترا وستين سنتمترا، ولونه الأسمر، ونظراته الكاسحة، صار الحطاب العبدي عصبيا مثل العديد من المحاربين وسط تلك الغابة الألمانية التي أعاد أحد الجنود تسميتها بمعسكر التناكر.

كل شيء صار عبثيا داخل الغابة، ففي السنة الأولى انتقص عدد المحاربين بموت الكثير منهم واختفى البعض الآخر إما بفرارهم إلى فضاءات لاحروب فيها أو زواجهم من ألمانيات أو مهاجرات، فيما بقيت المجموعة المتبقية تمارس حياتها صباحا في التمرين ثم تناول الفطور وغسل الملابس في حماس وحيوية.. يلعبون الورق، وحينما يحاربون ويرجعون إلى المعسكر يتبادلون الحكايات التي وقعت لهم أو لغيرهم... لكن

بعد مرور بضعة شهور تغير كل شيء، فلم يعد أحد يحكي أو يكلم أحدا، وصار الصمت والسهو والعبث الأسود من ضرورات المعسكر. واكتفوا بتسمية محمد الشيدي "الجنرال أريتيميس" حينا، وحينا آخر "مول الزمان" لامتلاكه تلك الساعة الغريبة، أما الحطاب العبدي فقد أصبح زعيما حرض العساكر على القيام بانقلاب على الجنرال الفرنسي شارل لوبي... ثم تأجل أو تنوسي الأمر أمام انشغالات بيضاء.

الشيدي لا يهتم إلا بالساعة الحائطية ودقاتها، ولحظات خروجه إلى الوادي مع الحطاب.

لم يعد يعرف كم سنة مرت على قدومه. سنة. سنتان ثلاث سنوات أم أربع؟ لا يريد أن يجهد نفسه لأنه صار يحس بثقل الزمن، والحرب تطول ولا تشيخ وإنما تتجدد بدماء موتاها ورعب المؤهلين للموت. مات الكثير من أصدقائه، كما مات هو والحطاب مرات عديدة.

- أين نحن وفي أي زمن؟ سأل نفسه، فبدا له السؤال باهتا ثم عاود البحث عن جمل منزوعة من داخله..

- إننا لا نحيا زمننا بالتأكيد.

هل تعتقد أننا في حياة. لا أيها المحارب بل الحياة تستعيرنا من الموت لفترة ثم ترمينا. أين الزمن الذي يولد مكتملا. ليس، ولكني أعتقد أن الماضي هو الزمن الحقيقي أما الحاضر فهو اللازمن، الناقص، المستعار، لهذا لا أعرف - وأنا شيء مستعار في الوجود وفي هذه الحرب أيضا - كيف أفسر لك حقيقة ما أشعر به.

أستطيع أن أحسم في الأمر بطريقتي. لا، لا شيء.

خاطب الحطاب في ظلام ليل تختلط فيه أصوات الرهبة بدقات الساعة الحائطية بخطابات هامسة لا منقطعة لحشرات وحيوانات. ثم سحب أنفاسه وواصل:

- أعتقد أننا لانحيا إلا داخل حلم، أنا وأنت وكل شيء، لا نشكل إلا أثاثه الذي سيتبخر فور استفاقة الحالم. أنا الآن لا أشك في غير وجودنا.. لا أحد صار

يحتمل هذا الفراغ، والحروب الغادرة لجنود ألمان لا يعرفون غير هتلر، وعُزّل أقحموا في حرب مؤجلة سقطت من جراب أوهام التوسع (يلتفت كما لو أنه يخاطب شامة وهي تنصت إليه)... حقا أنت من تفهمين مقاصدي.. الموت أصل والحياة فرع، مثل الخيانة طبع والصدق شيء عابر. لا تهتمي كثيرا فهذا شيء عام. نعم، أنظري الآن من الأقوى والأبقى؟ بالتأكيد. فيقين الموت أصلب لأنه سرمدي بينما الحياة عرضية ونادرة. نحن جميعا أموات في صحونا وشبه أموات في نومنا لأن الأحلام هي الحقيقة الوحيدة في هذا العرض.. ماذا تبقى إذن؟ لا شيء، حياتنا عدم مالم نتبين الخلود هناك... وأنت ياشامة. داخل محلة الموت المخزنية، أو داخل البئر المهجورة، أو في قلوب أجدادي التي أنهكها الوجد الحارق.

لا تهمني حياتي بقدر ماأهتم لموتي. لا، بل الموت قيمة نادرة. كيف؟ نحن أموات منذ الأزل، من الحي فينا؟! لا ياشامة، الحي لا يموت مثلك أنت أيتها المقدسة الشريفة، الولية الصغيرة والفقيرة إلى الله، الغنية بتذكراتي وتذكرات من سيأتي بعدي. نحن الموتى نفنى أبديا لأننا لم نستطع أن نلج الحياة، فتهدريت أرواحنا المهجورة، لا نحمل الآن غير خراب الروح وَعَينا خرساء.

ربي لماذا لم نلج الحياة بعد؟ لماذا الموت سيدنا؟.. نفقت كلماتنا، أفكارنا، علاقاتنا، أصواتنا، خطونا، نظراتنا، أملنا الضيق ويأسنا الشاسع.

ربي نكون إذا ما كنا، أيمكنني رؤية شامة وريمة ومنانة والفاضلة ولالتهم وأجدادي وكل الملائكة الصاعدة إلى السماء تجر الشمس والفجر؟

هل باستطاعتي أن أرجع لألعب مع عمي منصور وأسرق جلباب بنطاهر، ألبسها ثم أسقط في جلايلي. يأخذني ويضعني فوق كتفيه ثم أعتصر نفسي... كنت أحب أن أراه يضحك. طفل يحب الحياة فلماذا جعلته يكبر حتى ضاقت الحياة عليه ولم يجد غير الموت لباسا مواتيا.

الحطاب ياصديقي.. المناحة جوهر كل شيء يصدر عنا، كيف يبدو كلامي أبيض وأنت تعتقده سوداويا مثل ليلنا هذا.

أحس بتعب بدا على صوته وقسمات وجهه وهو يبحث عن فجر للنسيان.

عاد الشيدي إلى هوايته، فصنع فخاخا وشباكا، وصار يتصيد بها الطيور والحيوانات، فتوزع المحاربون خلف فخاخهم وشباكهم، ولما بدا الأمر قد أصبح جديا أصدر الجنرال لوبي، ذات صباح، قرارا تمت تلاوته بالألمانية والفرنسية والدارجة العربية على كل المحاربين يمنعهم من تصيد الطيور والحيوانات، والتهيئ لتصيد العزل من الألمان، لكن لا أحد يبالي بهذا اللون من العبث، لأن الشيدي -باعتباره الجنرال أرتيميس- وفي لحظات تخفت فيها حدته ويتحول إلى الفكاهة، أصدر -بدوره- بلاغا مضادا في صيغة قرار يسوغ فيه صيد الحيوانات ومنع تصيد البشر الأبرياء.

□ □ □

الخنادق المحفورة صارت مهجورة لأن الكثير من الحشرات والحيوانات اتخذتها مأوى لها.

شهر غشت القاسي بصهده دفع الحطاب والشيدي إلى صنع فراشين معلقين من الخيش، مربوطين بالقنب مع أربع شجرات حملت أيضا متاعهما بالإضافة إلى فخاخ زامة على فكيها الصدئين والساعة الحائطية المبثوتة قرب رأس الشيدي على الشجرة.

هذا الوضع يشد كثيرا الشيدي إلى الليل والحديث عن سلالته وعن الشيخ الهبطي والمسمار الذي تبخر إلى ريح عاتية تنتشر في كل مكان.

بحث الحطاب في سلالته عن خبر يجرف به ظلمة الليالي مع رفيقه ويهلج البئر المهجورة بداخله بدون قرار.. فلم يجد غير مغامرة مجروحة لوالده في العقد الأول من هذا القرن، تروى بكثير من التحسر والإعجاب كما سردها على روزا بشيء من

الإعتزاز وبعربيته الخالدة دون أن يجهد نفسه لترجمة ما وقع لوالده احديدان العبدي مع القايد عيسى والشيخة عبدية.

"تانا.. تانا.. خفتك لا تبليني — تمشي وتعاديني
شفت القايد في نعاسو — شفت جوج الخايل
كحلين وغريين — في العكبة جاو متساوين
وسطهم أربع بنات"

□ □ □

قام الشيدي. أنزل ساعته من الشجرة. فتح بابها الزجاجي. نزع عقربيها. أعادها إلى الشجرة تدور في فراغ زمني تائه.

الحطاب وهو يحكي. يتوقف ليخلق مسافاته المتباعدة حتى يأخذ كل وقته في الاستيهام مع المشاهد القريبة منه.

فلجأ إلى صنع سبسي طويل يدخن فيه ماجمعه من أوراق وزهور مجففة.

□ □ □

للقايد عيسى، سجن بداره الكبيرة، قلعة حصينة يرمي فيها كل المغضوب عليهم، يحرسها رجال غلاظ لا يفعلون شيئا غير الجلد والتعذيب والقتل إذا تطلب الأمر ذلك.

للسلطة ترجمان فصيح يسمى القوة والقهر والعبث والإذلال، وحياة القايد تركيب شامل للوحة، "العبث فيها يدفع بكل المتناقضات في خطوة واحدة".

يفكر في التوجه نحو باب السجن الموجود بقصبته، فيتراجع حتى لا يضعف

أمامها، لا يريد أن يراها مرمية خلف القضبان، منكسرة بعدما كانت شامخة.. حبيبته وشاعرته والمرأة التي لونت لياليه بصوت الحناء.

"لا له.. آلا له

الرادا والخيل أوين

الرادا عليه. الرادا فين تعلمتيه

باش اداوك باش صايفطوك آ العبدية.

آ الكافرة حاولي على الوشام. لا تعكريه"

الزمن الذي لابد منه يورِّث ذيوله.. كيف لا يشيخ، ولماذا احتسابه ضرورة؟

القائد يضع ساعته ذات السلسلة في جيبه. ساعة حائطية أخرى كانت الوحيدة في سهل عبدة، أهداها للقايد أحد كبار الملاكين اشتراها من مرسى أنفا بعد أربعة أشهر من حادثة بابور البر.

أحديدان العبدي، الوالد الطيب الذي لم يتمم بعد عقده الثاني، كان سجانا يحرس عبدية المعزولة في غرفة داخلية لا تصلها الشمس. تعب من الجلوس أمام الباب الخشبي، ومن وحدته أحس بوحدتها، وأدرك - بدون شك - أنه لا يحرس تلك المرأة التي شغلت باله منذ سنوات، وإنما يحرس الهواجس والإستيهامات التي خامرت مراهقته وهو يتلذذ بصوتها من نوافذ القائد، صوت روحاني كان يسقطه مغشيا عليه كما كان يسقط الطيور. امرأة هيفاء في منتصف عقدها الثالث، وحيدة داخل قفطانها وصمتها، بدورها تنتظر السجان كي يكلمها... لم تعرف بالتأكيد، لوعاته الحارقة ولا صبواته القديمة في خيالات صوتها.

متى تصبح الأحاسيس عالمة، مستقلة عن قصور العقل وجهالاته الشتى؟

حينما كلمها وتهدريت أشواقه القديمة والمتجددة، عرفت أن سجانها يسجن بداخله تاريخا من النكبات، فحكت له أو هو الذي حكى لها.

أحبها القائد وهي صبية لولعه بالزهو مع بضاضة الجسد والصوت، والحكم بالحديد والنار. عبدية صارت نوره الذي يرى به الشمس في الليل، وصوتها هو الماء الذي يروى به عطش الليالي.

"جيني آ حمرة القـــدام
وتاك الله بالوشـــام
الفيّم احمر على الـــدوام"

امتدادات في جذر القول بصوت مزدوج، صوت عبدية الناعم والنافذ إلى القلب يحدث رعشة أليمة ولكنها بليغة تتقاطع مع صوت الشيخ المجروح الهائل والمحترق... مما يجعل القول مناحة شاسعة للفخر والزهو والعزاء.

عيسى تحوطه الرعشات فلا يملك ذاته: ويرمي طربوشه الأحمر، صائحا في العبيد للإتيان بفرجية أخرى، عوض التي مزقها على ظهره من شدة التأثر.

"جبال مقابلة جبـــال ... وحشك ولألِي هبّـــال
مَنْ هْبَالَك آغزالـــي ... رانا جاي كنســـال
ياك البوسة في الشوارب ... واللذة في اللســـان
فُيّمها كيف الملـــوي ... يحلل الصيـــام
هي كيف العود الشامـخ ... تكّدد في اللجـــام
هي لابسة تحتيـــة ... وتشالي بالكمـــام"

□ □ □

الالة ترن. وضع كفيه على أذنيه حتى لا يحتسب الوقت، فبصيرة الساعة المستطيلة مازالت مرهونة بضوابطها.

- لماذا أصبحنا نحس بالزمن فقط بالنظر أو السمع؟ لماذا نفس الرائحة تتسرب إلى قلبي هنا أيضا؟

الحرب تتواصل، وقد استطاع الجنرال شارل لوبي أن يعلق مذياعا كبيرا داخل المعسكر، التفوا حوله في البداية ذاهلين ثم انفضوا عنه بعد أسبوع واحد فقط وتركوه يرغي ويزبد في ذلك الخريف القصير الذي كسا الأرض بأوراق ميتة تسقط دون مبالاة والحرب متواصلة تُسقط، بدورها، أوراقها القدرية.

عاد ينظر إلى الساعة وأرقامها الرومانية، ودقاتها التي توهم بالإنسجام، فاجأ الحطاب العبدي وهو يقول:

- لم أعد أحس بالزمن، ولا أريد أن أحسبه أيضا.

- ربما. لا يهمني شيء على الإطلاق في هذا الحاضر، لهذا اتركني أحكي لك عن الماضي أو اللازمن.

- هل تعتقد أن الماضي يولد مكتملا؟

- حتما.

- أتعرف لماذا جدي لم يدخل عبد السلام إلى المسيد.. حتى لا يتعلم. العلم عندنا ضعف وليس قوة.. أما شامة فإن الله أراد لها أن تتعلم حتى ينبسط وجدانها وتعلم بكل شيء إلا محلة المخزن.

- أنت تتكلم بصوت الملاك أو الشيطان الذي يسكنك.

- منذ فجر التاريخ ونحن نحتقر براءتنا ونتهم رفضنا. التجربة أسست لكل جميل وليست القراءة. شوف من الأسبق؟ التجربة هي معرفة غير مدونة لم تخضع لقانون التشذيب والتزويق بعد ذلك تم نقلها إلى شيء مكتوب سمي تعلما، ومن

صلب التعلم ولد الجهل...

- هذا رأيك وحدك، دافع عنه بكل الطرق.

- بكل تأكيد. لنتعلم كيف نهرع إلى أشيائنا وندافع عن كل شيء بما في ذلك أخطاؤنا.

ثم نظر إليه بعصبية، تلتها إبتسامة ساخرة مهد بها لمعاودة النظر في الساعة التي تدور بدون عقارب.

□ □ □

قررا الفرار والزواج، سجان وسجينة، فاختارا الفجر الماطر في ذلك الشتاء البارد الذي لم يؤثر على حرارة عواطفهما. الغيس والظلام المشتبك في أوحال ثقيلة أثقل من الوجد المرعوب. قالت له: حينما كنت في الرابعة عشر من عمري، لم تولد أنت بعد، آنذاك اشتراني القائد عيسى من أمي أو اختطفني منها لأنها كانت بدورها شيخة، وسمع بصوتي فقرر أن أكون خليلته الصغيرة ومطربته الأبدية. لم يكن يحبني بل كان يعبد ذاته. القائد لا يحب أحدا و إلا ما كان قائدا. كنت أقول له أن يخفف من المكوس والضرائب عن قبيلتي أولاد زيد فيرفض.

- آقايدي، قل لي نعم جبراً لخاطري ولاتفعل شيئا.

- لا يا عبدية، أنا خلقت لأقول لا، والجميع يقول لي نعم آس.

"ياميمتي الحصبة ولافة سروتها علاقة

اتعالى، تعالى نسولك أذاك الغادي لالة عيب عليك

ارجانا في العالي غريب وبراني

لاله عيب عليك قاصح لقليب

قليبو من الحديد"

بدأت الثلوج تتساقط بكثافة كما لو أن السماء تنفض يديها من كل خزائنها الثلجية. أما المحاربون فإنهم أول مرة منذ قدومهم إلى هذا القدر يلعبون بالثلج، يمزقونه ثم يعيدون جمعه غير مبالين حتى غطى كل شيء، وتحولوا إلى أشباح بيضاء.

انسدت كل الطرقات ولم يعد أحد بقادر على الخروج إلى الهجومات الليلية كما سمعوا بحصار شامل للمنطقة، وصاح فيهم الجنرال لوبي لرفع عزائمهم.. إن الفرج لقريب. لكن ثقة المحاربين كانت منزوعة، فلم يجد كلامه موقعا يقف عليه ورجع يجر ذيول الحسرة والإنتكاس.

الثلج والألمان والزمن السائب بدون عقارب: ثلاثة عناصر للمنفى الذي يضم محاربين جاءوا من أجل لاشيء، فقط يحاربون مثل عبيد قادهم السيد حطبا للقيامة.

لا... لست عبدا، وإنما جئت لأن الجنرال الكبير (الكبير هو الله) أذاع بيننا أنهم إن هم انتصروا على ألمانيا سلمونا الشاوية وكل أرض المغرب التابعة لها.

لست وحدي. الحطاب وغيره، البعض أو الكل، لا أعرف وأنت أيضا لن تعرف بالتأكيد.

شهر واحد كان كافيا ليحوط الثلج كل المعسكر ويقطع أي اتصال بينهم وبين النقط المركزية الأخرى. حصار شامل وانقطاع عام لأي تواصل نتج عنه انقضاء المؤونة. فأكلوا البغال والذئاب والثعالب والطيور، وخزنوا ما اصطادوه بعدما يئسوا من عدم عودة من أرسلوهم لإخبار الجنرالات الفرنسيين في مواقع أخرى. ماتوا تحت الثلج أو قتلوا من طرف الجنود الألمان، أو فروا مثل الطيور إلى مكان دافئ وآمن. العبث صار صريحا، والحطاب العبدي لم يستنفذ حطبه الحكائي بعد حول عبدية واحديدان.

أخرج الشيدي كل الخروب الذي كان قد وضعه في شكل متاريس مربوطة في خيش رمادي بالجهة الخلفية، وهم يوزعه على الثلاثة والثمانين محاربا الباقية.

أما الجنرال فقد لبس بطانية كاكية اللون ألصق عليها نياشينه التي يتحسسها

بيمناه دون أن ينظر إليها، نافضا عنها الزَّخات الماكرة للثلج.

جلس الشيدي فوق كوم ثلجي في مساء رمادي ثم نادى على الترجمان الذي يعمل طباخا بعدما لم يعد يجد شيئا يفعله، أمره أن يدون رسالة يريد بعثها إلى ريمة الإغريقية.

الحبيبة الخالدة فيدرا، هذه أول رسالة عامرة بخيالات محارب شاوي. لم أقل لك فيم كانت شامة تفكر لحظة كان الإندفاع قويا نحو محلة عبو الريح للموت، ولحظة رأت عبد السلام ونادت عليه بصوت الجنة، ولحظة ركبت الحصان مع زوجها وهي تحمل عودا وصوفا وضفيرة.

كانت تستعيد تتمة حياتنا التي لم تكتمل... وتستعيد الطفل الذي ولد من رحم آخر ونشأ في أرحام شامة وريمة وفيدرا وعبدية وأرتيميس...

لحظتها كانت شامة تفكر في هذا الطفل الذي لن يولد. وتفكر في بركات مول الثعلب جد زوجها وكيف ألهمه القدر الفرج المناسب في اللحظات العصيبة...

□ □ □

الحاكم أحمد بن موسى مول الوقت وأحد أجداد عبو الريح، يتلذذ بكل شيء، فأعلن في الناس أن كل من يستطيع البقاء ليلة كاملة في جبل الثلج "ذاك"، يعطيه مالا وفيرا يجعله من سادة وأغنياء البلاد، ويقربه إليه. ولأن الفقر كان موتا، تقدم العديد ممن تسابقوا للفوز بالرهان، وكل من يقضي الليلة في الجبل وسط الثلج يموت من شدة البرد... فتكرر الأمر حتى بدأ الناس يتراجعون وتمنوا أن تدفع الشمس بخيوطها لإذابة جبل الموت... والحاكم ينتظر حتى جاءه ذلك الجد الذي خلف ستة أطفال لم يجدوا طعاما غير مضغ أوراق الشجر.

قال في نفسه: ربحة أو ذبحة، إما أن أموت ولا أرى أطفالي يموتون جوعا أمام عيني وغيرهم يقامر بالأرواح... أو أعيش فأنقذهم معي.

قال له الحاكم: ستجلس هناك. الليل كله مقيدا مربوطا في أوتاد ، ومراقبا من بعيد من طرف حراسنا.

□ □ □

جلس مقرفصا وسط الثلج، يرتعد من شدة البرد والخوف من الموت وعلى أبنائه الذين لن يجدوا غدا أشجارا أخرى مورقة.

حاول أن يتخيل ماذا يفعل الحاكم في تلك اللحظة... فأحس بقلق شديد ثم حول دفة مخيلته إلى الولي الصالح سيدي العشي الذي يفيض صدره بالحليب كلما ضاقت نفسه من شيء... أحس باطمئنان وهو يتذكر العشي ثم رمى ببصره بعيدا فتخيل قبته البيضاء وقربها كانون في التراب تشتعل منه النار.. احتار في البداية في تلك النار البعيدة وسط الثلج، فخمن أن تكون للعسس الذين يراقبونه، ثم تأكد بأن الولي الصالح سيدي العشي أشعلها من أجله فركز كل شتات ذهنه وروحه فيها يستدفئ حتى الصباح.

□ □ □

لم يصدق، وصاح في العسس: هاتوه كما هو. جاؤوا به مقيدا دافئا فسأله الحاكم:

- لا يمكن أن تربح الحاكم أيها الجلف المخادع.

- ولكني حي أمامك أيها الحاكم.

- بل أنت ميت قبل أن تأتي إلى هذا العالم...

- بالفعل أيها الحاكم.

- كيف بقيت حيا وسط الثلج؟

- كنت استدفئ بعيني من نار بعيدة.

صرخ الحاكم في وجهه بعدما وجد صكا يتهمه فيه بأنه لم يحترم شروط الإتفاق وهو عدم الإستدفاء.

خرج الرجل تائها، هاربا من نفسه لا يعرف أين تقوده خطاه وفجأة يرى ثعلبا قريبة منه فيهم بالقبض عليها لكنها تخذله وتجعله يطمح مرة أخرى فيتبعها وهي تلاعبه وتقوده نحو الغابة دون أن تترك اليأس يتسرب إليه، والثعلب تعرف أنه فكر في ذبحها لأطفاله.

توغل في الغابة يجري خلفها وفجأة وقفت فارتمى عليها وما أن لمسها حتى تحولت في يده إلى امرأة يطفح وجهها بالخجل والجمال. تراجع مذعورا ولما تمثل المشهد وتحولاته القاسية أيقن بأنها ربحة أو ذبحة مرة أخرى. أخذته من يديه وتقدمت به نحو كهف ذي صخر أسود، ثم قالت له:

- هذا رزق أطفالك فاحمل ما شئت من الذهب والماس.

□ □ □

لما صار له قصر واسع وأملاك لا تحصى وجه مول الثعلب دعوة غذاء إلى الحاكم مول الوقت فلبى دعوته حتى يرى بعينيه البناء العجيب للقصر الذي ذاع صيته.

- هل نأكل الآن أم حتى نشرب الشاي أيها الحاكم؟ قال مول الثعلب.

- الشاي أيها المواطن الصالح. رد الحاكم وهو مشدوه في بديع القبة التي يجلسون فيها، وابتدأ الحديث عن كيفية بناء هذا القصر حتى طال الحديث وشعر الحاكم بأن الشاي لم يأت وتأخر كثيرا فسأل:

- أين الشاي؟

- إن الماء الموجود في الغلاي مازال باردا حتى الآن. رد مول الثعلب فاستغرب الحاكم كيف لم يدفأ وهو فوق النار منذ ساعتين. قام لينظر في الأمر فوجد الغلاي

معلقا في السقف، وفي الأسفل، على الأرض، توجد النار الملتهبة.

- أنتم حمقى وهل يدفأ الماء وهو معلق وبعيد عن النار؟. قال الحاكم.

- وهل يدفأ الساهر وسط الثلج بعينيه من نار بعيدة في خياله؟. قال مول الثعلب.

□ □ □

هكذا يا ريمة فكرت شامة وفكرت أنا الآن، هل تسمعين لأنيني وأنات جهة كاملة تنتظر الخروج من الجنات المهجورات إلى غابة الأعشاش.

□ □ □

الجميع بات يعرف أن المذياع الخشبي لم يعد يشتغل بعدما خربه المحاربون ورموا بمصارينه باحثين فيها عن الأصوات النسوية المتكلمة؛ الجنرال يجلس ببطانيته فوق خيشة خروب.. يضع فوق ركبتيه هيكل المذياع ويبدأ خلال ساعات طويلة من النهار يدير زر الهيكل ثم ينحني برأسه واضعا أذنه على البوق، فيتعب من الاستماع إلى الصفير والفراغ، ومن نفض نياشينه التي لايشك أحد أنه اشتراها من السوق القديم.

ينهض الجنرال، ويقوم بجولته المعهودة، متحدثا مع المحاربين فرادى عما سمعه في المذياع من خطابات تقول بأن الجنرال دوكَول سيتوجه قريبا إلى معسكر دون كيشوت الأعمى ويقوم بترقية الجميع المتبقين إلى جنرالات سيحكمون مقاطعات ألمانيا.

□ □ □

كان مسعورا وهو يهاجم دوار أولاد زيد، قلت له من قبل أنهم أهل دواري،

ولكنه لم يسمع غير صوت الموت فذبح الثوار الذين حاربوه طويلا وقضت مضجعه حركات احتجاجهم ضد جبروته.

لم أفهم - وكنت أظن أني فهمت - عقل القائد عيسى، في ذلك اليوم كانت أول مرة يطلب مني السهر والغناء معه بالنهار. لم تكن عادته، لأني كنت أقول: أنت ياقايدي سَحْتْ الليل، ولم أفكر لحظتها في مغزى قصارة ابتدأت مع الضحى وانتهت ساعة الغروب، تركني متعبة من الغناء والرقص، وركب، على التو، جواده يتقدم طاحونته القاتلة لمباغتة الثوار الذين انتفضوا على القايد ضد بطشه ومبالغته في اغتصاب الأراضي وفرض الضرائب.

باغتهم (سحت الليل) في الظلام للرقص على أرواحهم وإتمام السهرة التي ابتدأها مع سليلتهم. بطش بهم حتى أصبح النهار على سيول الدم والأجساد المرمية.

وصلت عبدية متأخرة إلى ساحة الموت، وجدته يتأمل مخلفات سهرته. لم يكلمها، ولكنه رحل وتركها وسط الجثث والمندبة. انسحبت قبل أن يطردها من تبقى في الدوار، فلم تجد غير قايد الشياظمة عدو عيسى، والذي تمنى لسنوات أن يبيع كل أيالته، التي هي تحت حكمه، من أجل شراء عبدية.

قالت له في شرطها الأول والأخير أن يلزم كل الدواوير الحداد سبعة أيام على أولاد زيد وفي اليوم الثامن سأغني لك عن القايد الغدار.

"اجرح قليبي آميمتي بالحديد ... أبابا راه العزيز غدرني ياسيدي

قليبك من الحديد آ الغدار ... أبابا سير كيف كنت

آميمتي الخطوات اكتابو ... على كبيدتي الطرقان اصعابو

ياسلمى يا حليمة ... ياهينة يا ريمة

يا الكالسات في الدويرة ... كاع ماتوادعنا آ الحبيبة

كاع ما توادعنا آ شامة ... آبابا عيب عليك

قاصح القليب من الحديد آ الغدار أولاد زيد أولاد زيـــــــد
بغايت نسولكـــــــم واش انتما عديانــــــي

□ □ □

من عدونا في هؤلاء الثلاثة؟ قال الحطاب للشيدي ثم استطرد: نحن أم ألمانيا أم الحلفاء؟ صمتنا ليتركا العبث يدفع بكل بيادقه في رقعة التفكير ويلتهم ما تبقى. الجنرال بقي وحده بعدما أرسل كل ضباطه إلا واحدا عاد من منتصف الطريق يتحدث عن "دون كيشوت الأعمى المحاط بالبحر والثلج وهتلر على بواخره الضخمة ينتظر القرابين منا".

المحاربون الثلجيون في بطانياتهم ينتظرون ما سمعه الجنرال من هيكل المذياع، ثم يلتفون حول الضابط ليروي عليهم ما رآه وماذا يقصد بالقرابين؟

□ □ □

رموها أمامه مقيدة، وحينما رأته ذكرتها عصبيته تلك بتاريخها المبرح معه، فقال لها أن تغني له ما قالته فيه. لم يكرر كلامه عليها، واكتفت بالتأمل بعدما وقفت داخل قيدها في انكسار شامخ. ومن بعيد تتلصص النساء من ثقب حائط القصبة، طفل صغير انفلت وصار يحبو حتى اقترب من عبدية، أما أم الطفل المتلصصة فقد انتبهت له وضاق صدرها وصارت تنتظره.

عبدية التي أحست بحركة الحبو خلفها، التفتت بسرعة قبل أن تستعيد تأملاتها الممزقة، ولأنها لم تجد بنديرا فقد مزقت بيديها المقيدتين، الثوب الذي يغطي صدرها العامر لتضرب عليه وتردد:

□ □ □

"مازال ذنوبي تحيط بيـــــك وتجيبك لـيـديـــــــا

ارجـانـــا في العـالـــي

اللي ماعزاني في كبيدتــــي نعرفــــو يكرهنــــــي

اتعالى، تعالى نســـولك آذاك الفـــــــــــادي

شكون سبـــابـــــي حتــى خرجـت بـــــلادي

لا باس آلا بـــــــاس تهلكـت بلا قـرطـــاس

طبت ماجاني نعـــــاس على فعلك اللي ما يســواش"

في هروبها لم تستطع الإبتعاد أكثر مما ابتعدت لأن يد القائد طويلة وحساسة للإمتداد وجر عبدية من شعرها الطويل. أما احديدان العبدي حارسها وغرارها فقد فر بجراحه رغم قوته، باحثا عن حياة أخرى حينما اقتنع أنه لن يطال حلمه اليتيم بالعيش على صدر عبدية.

□ □ □

آخر الأنفاس الباقية في جراب العبث تنفخ في المشاهد المغطاة بالثلوج.

أربعة فرنسيين ومحارب مغربي واحد وسينغالي أخير بالإضافة إلى الشيدي والحطاب، ابتعدوا عن المعسكر قليلا نحو الوادي ثم جلسوا أسفل شجرات الخروب، وفي صمت شكلوا دائرة لبداية لعبة الموت التي جهزوا لها بما تبقى من أرواحهم.

مسدس صغير، ولكنه ثقيل يحمل أحد عشر ثقبا لوضع الرصاص. قام الشيدي نحو شجرته، مسح ساعته المستطيلة واستقدمها معه، وكان الحطاب قد أفرغ المسدس ولم يترك فيه غير رصاصة واحدة ثم أدار الحلقة الدائرية بشكل اعتباطي حتى لا يعرف أحد أين ستقف الرصاصة التي ستحسم في اللعبة وتخطب عريسها للقيامة.

- من أين يبدأ؟

دقات الساعة المستطيلة تسمع الآن بشكل جيد فالجميع صاروا لاعبين. وكل لاعب يضع فوهة المسدس، بعينين مفتوحتين على جبينه أو صدغه، لن ينتظر طويلا قبل أن يضغط على القرص القدري. الرصاصة المختبئة داخل ثقبها الثالث لم تتأخر في اختراق رأس محارب فرنسي.

تواصلت اللعبة وطالب الحطاب الإحتفاظ لنفسه بضربتين متتاليتين. قلة من المحاربين تحلقوا - في برود - للتفرج على لعبة تستمر في صمت وبطء، ومنهم يتم أيضا تعويض المفقودين. كانوا مشتتين في أمكنة مختلفة من تحلقهم عن قرب وبعد وفوق الشجرات يطوف عليهم حمدان الرحماني بالمسدس.

الجنرال لم يتدخل مع ضابطه في اللعبة، ربما فكر في وسيلة تنقذه ممن تبقى من جنود أكلوا كل البغال والحمير وخرجوا عن طوع سلطته، كما أن التقرير الذي يود تقديمه لجنرالات باريس سيقول فيه أن هؤلاء القتلى في لعبة الموت هم شهداء الحرب.

اقترح الشيدي على المتبقين من الأحياء أن يضيفوا رصاصتين موزعتَين على ثقبين متباعدين. في كل آخر ليل يتم دفن قتلى اللعبة، وفي الصباح يتقدم حمدان الرحماني لتسجيل المحاربين الجدد، وفي اليوم السادس لم يعد أحد يرغب في الدخول إلى اللعبة وشاع في المعسكر أن الحطاب والشيدي يخدعان فيها وقتلا سبعة عشر محاربا.

□ □ □

أربعة من السبايسيا يتأبطون مكاحل بوسبسي، أعادوا عبدية إلى القايد وهي مثقلة بالتعب والضيم والعقود الراشية لحكاية تبحث عن نهايتها المفجوعة.

فر احديدان، أو هكذا قيل، واستقر في بلاد آحمر يحلم بمشهد لم يكتمل، أما عيسى فقد خرج أمام باب قيادته يلبس فرجيته وبلغة صفراء، بشعر مشعث،

وغضب يرسم أحواضه المشتعلة في عينيه وجبينه، يستقبل السبايسيا القادمين بالقربان الذي فر من دار الگرنة.

نظر إليها، ثم حاول أن يتخيل مشهد قصارة قديمة، فلم يستطع أمام صورتها المنكسرة إعادة ما صار في حكم الماضي الملتبس.

أشار القايد عيسى دون أن يتكلم إلى اثنين آخرين من العسس، حتما يعرفون تلك الإشارة، فقادوها نحو بئر مهجورة غير بعيدة عن سكنى القائد، هناك رموها إلى حتفها الأخير.

□ □ □

الحق هو متعة الحياة، والموت حق في هذه الحياة، أما الزمن فإنه لعبة المحترفين فقط وليس هناك زمن واحد بل أزمنة متشدرة لا تتشابه في الآن، وقد تعكس الماضي أو المستقبل.

تقدم الشيدي من الجنرال واقترح عليه أن يقامر معه على منصبه، ثم أخرج المسدس ورصاصة واحدة حز حوافها بالسكين، لكن الجنرال رفض، خائفا، وبداخله رغبة في التفرج من جديد، فأغرى ضابطه بالدخول مع الجنرال أرتيميس في الرهان، حيث سيموت في الدور الأول برصاصة اخترقت روحه المستعبدة.

في الليل وحول دفء النار من لفحات الثلج والجوع الزاحف أباح من تبقى في معسكر دون كيشوت الأعمى السقوط في مهاوي السخرية، فصادقوا جميعا على تعيين الحطاب بن حديدان العبدي جنرال بالليل، والجنرال أرتيميس محمد بن عبد السلام الشيدي جنرال النهار.

□ □ □

في بلاد آحمر تزوج احديدان العبدي، وانتظر عقدا كاملا كي يختفي القائد عيسى، وهي السنة التي وضعت فيها زوجته طفلا أسماه الحطاب.

بعد أربعين يوما على ولادة الحطاب ودعه أبوه احديدان متوجها إلى عبدة وقد صار مدمنا تدخين الكيف، تقوده خيالات بناها بالألوان وحنين مردوم إلى البئر التي رميت فيها عبدية.

وقف بجانبه في يوم خميس ساعة الظهيرة، دخن حتى شبع وصار إحساسه منسجما مع خيالاته ثم أخذ فرجيته بين أسنانه وابتدأ في الهبوط إلى البئر المهجورة عبر استخدام رجليه ويديه، وهو يعاني وكأن هذه البئر تقود نحو اللانهائي بعدما صار الظلام يغلف كل حركاته. كما الكيف الذي دخن منه كمية كبيرة جعلته في توازن روحاني عميق.

أحس برجليه في الأرض، فتحركت يمناه بغير إرادته لتدفع بابا لا مرئيا أمامه فيبصر بهوا رصت أرضه بالزعفران تنبعث منه رائحة البخور والمسك، وريح خفيفة تهب من جهة لا متعينة؛ نفس الرائحة، نفس الخيالات.

جنة مهجورة تحت الأرض؟ مشى. وجد. رأى. أمامه جارية سوداء إسمها زيبية قادته نحو قبة كبيرة مؤثثة بكل أشكال الجلود والسجادات والرسوم ورائحة طيوب تفوح. وفي الأقصى القريب إلى العين والقلب تجلس عبدية على عرش مذهب، وترتدي فستانا من نور أحمر وأصفر، وتحمل بيدها اليمنى كتابها وبيدها الشمال صولجانا أبيض اللون.

– أخيرا عدت إلى صوابك يا يوسف. انتظرتك منذ سنوات، والعشاء الأول مازال باردا ينتظرنا.

لم يتكلم وهو ينصت إلى عتابها ولكنه فكر في يوسف واحديدان وهو لاينزل نظراته عنها ولا يرمش بعينيه خوف أن يفقد المشهد الذي يدور.

سلمته جلدا وقالت له.. هذا جلد عبدية التي ماتت في البئر، خذه يا يوسف واصنع منه ملكك.

- أنا احديدان العبدي يا شامة، يوسف مات، والذئب كذلك.

(قال دون أن يتكلم أو يرمش).

- هو جلدي وجلدك وقميص الزمن. اصنع منه بنديرا تضربه فتسمعني.

- والطابة.. والفلك والأحلام؟ سألها عن حدود الحلال والحرام.

- *الطابة طبيبة وحبيبة. أعطيها من الناب حتى ترطاب. واعطيها من الدق اللي يكفيها. واللي قال طابة حرام إجيب فتوى عليها.*

يوم الإثنين خرج احديدان من البئر منهوكا يكتم أسرار الجنة المهجورة، فاتجه إلى السوق واشترى لنفسه جرابا من الدوم، وربطة كيف؛ وعند صانع الغرابيل صنع بنديرا من جلد عبدية الطالع من الأحلام.

حمل زاده وتوجه بالقرب من جنته المهجورة يمضغ حتى شبع ثم أخرج من جرابه المطوي والسبسي، فدخن بتؤدة وهو يلتقط حُبيبات الرمان.

تمدد، فلاحت له من بعيد فلول من الحمير التي يركبها أصحابها تترى عائدة من السوق، فحمل البندير بين يديه مُدخلا إبهامه الأيسر في ثقب العود الدائري الذي شُدَّ عليه الجلد وترك أصابعه الأربعة الأخرى تتلمس صدر عبدية، بصوته يفتتح دندنته المناحية:

عبدية زهات ومشات

لحبيبة اللي بغاتها الذات

الجنة فين طاحت فين ابقات

ثم ضرب بيمناه ثلاث ضربات، إثرها سمع صوتا نائحا ينبعث من جلد البندير يتراوح بين طلوع فادح يلامس نورانية الأشياء المرتبطة بالكلمة والصوت وبين هبوط

مروع إلى الأقصى المهجور الموحش:

"وآلالة واش كان سبابــي

حتى عودي گاجا بلجامـو

وآ شامة فين حبابـــــي

□ □ □

وآ لالـة عمـر الظالـم مـا يـروح سالـــم

بـاش داوك بـاش قتلـوك آ العبـديـــة

وآمول تابوت. من العاج آ سيدي حجاج

وآمول تابوت. من النور آسيدي منصـــور

تانا هاهي فيك ندوز عندك ونبكي عليك."

قام مدهوشا ثم عاد فجلس يجمع عدته في جرابه وساح في الدواوير يضرب ضرباته السحرية في صدر عبدية الخالد ليتكرر صوت الجنة، بقصايد طويلة مناحية تحكي وتبوح.

تاه احديدان العبدي في كل أرجاء بلاد عبدة واحمر يحارب بضرباته، وحينما يقولون له إننا لا نسمع شيئا، ينكسر ولا يتكلم باحثا عن آذان أخرى للإستماع إلى حبيبته.

□ □ □

خيوط الشمس تتحرر من قيود غيابها، وتتمدد فوق ركامات الثلج والبرودة، وقد بدأت تتحلل من انكماشها وتذوب.

شعاعات لا مرئية تترك خدوشها على بياض الثلج الشاحب.

أسبوع كامل والمحاربون الضائعون في معسكر محاصر بالعبث يراقبون عودتهم

إلى الأرض وانسحاب البياض.

- ماذا سنفعل الآن، هل نعاود الدخول إلى الحروب بالحجارة أم بما اختزناه من يأس خلال شهور الحصار.

- أبدا، سننتظر حصارا آخر للشمس من أجل تعديل الصورة.

لم يفكر الجنرال طويلا في كيفية التوافق مع هذه التحولات الجديدة وانقشاع الثلج ورجوع بعض الضباط والجنود الذين سافروا في أول الثلج، جاؤوا بالمؤونة والأسلحة والتعليمات الجديدة وبعض الأخبار عن الحرب في عدة مناطق.

أعد الجنرال خطبته التي يتأسف فيها للعدد القليل من المحاربين المتبقين على الأيام السوداء التي قضوها خلال الحصار، ويقوي هممهم بأنهم أبطال سيعودون فورا إلى ساحة الحرب بعد تحرر باريس وانكسار شوكة النازية.

نهض الحطاب العبدي يترجم خطاب الجنرال إلى المحاربين فارتجل كلاما لا يمت بصلة إلى كل ما قيل: *"إن العالم كله سيحتفل بكم أيها المختبئون في غابة ألمانية مهجورة. أنتم الطابور الأول نحو جهنم التي ستنطلق رحاها غدا من جديد. تهيؤوا للموت والله الرحمن الرحيم"*.

غدا سيحملون أسلحتهم الجديدة على أكتافهم الراشية وينتقلون إلى ساحات جهنم لنسيان كل شيء. إحساس مر لدى الشيدي الذي ترك الحطاب يتفقد الغابة قبل حلول الظلام. تقدم وسط المعسكر إلى جوار الجنود الذين دفنتهم رهانات لعبة الموت والقدر العابث وحطبه.

حفر قبرا صغيرا مستطيل الشكل إلى جوار القبور الأخرى وحمل الساعة المستطيلة، مسحها بكم ثيابه، ودفنها في قبرها، وضع العقربين المفصولين ودفع بالتراب مما شكل قبرا صغيرا لميت وقتيل إسمه الزمن، في لعبة أو حادث أو حرب ما.

كل أجدادي تحدوا الزمن ودفنوه في الأرض ثم صعدوا إلى السماء، جميعهم

بدون استثناء، فأصبحوا ملائكة نورانيين، تقودهم شامة الصغيرة، كما ورثتها حدوسي وخيالاتي الساخنة.

قبل قرنين كان اسمها منانة ثم شامة ثم الملاك الأخير في هذه الأرض... جاءت لترمم الباب المهجور الذي يقود إلى الشاوية جنتنا المهجورة.. لكن جحيم المحلة المخزنية لم يمهلها.

شامة وقبرها الصغير، هذا، في الأرض، هي هناك، في السماء تقود الجميع لأنها أمهم وابنتهم وشفيعتهم، تحرص على المحبات المتجددة.

يجب أن أحفر القبر. الرعشة التي احترقت في صدرها الصغير. الحزن المكتنز. التذكر الفادح لرسومات تتحرك. الرائحة الاستثنائية.

يجب أن تصدق أن أجدادي مكلفون بغروب الشمس وطلوع الفجر. بخيلاء، تمشي شامة أمامهم، وهم خلفها مثل خيول جامحة استقدمت من الليالي الطويلة، على أكتافهم شيءٌ يشبه الكَفدية المتصلة بسلاسل وحبال ممتدة تنتهي عند عنق الشمس... يجرونها كأي عربة إلى مخبئها المظلم. لن يعرفوا الراحة أبدا لأن شامة ستربط حبالهم، مرة أخرى، بعنق الفجر الرخي، فيشرعوا في جره وهو يتثاءب، وسط كثافة الظلام اللزجة ومروجه. ساعات مريرة يوميا ولكنها ألذ من الحياة، تنتهي بطلوع الفجر. تتنهد شامة فأحس بالهبوب.

أكيد أنها تتصفح كتاب الغيب السماوي وتعرف ما لا يدركه الخيال، النسيان الذي هناك، في الأرض، حفرته الملائكة في الكناش الخالد.

شامة تحمل نفس أقلامها القديمة. تغمض عينيها ثم تكتب بأحرف من ذهب ونور المآثر الخالدة للآدميين وترسم وجوههم، تلونها بنفس إغماضتها وتركيزها الذي يتحول إلى نور لاقط ينزل إلى الأرض باحثا عن توأم له.

نفس الريح تعاود الهبوب، ونفس الأدخنة بروائح حروبها العريقة ترسم

في الفضاء خرائب العالم والروح.

وقف الحطاب العبدي على الشجرة مرتخيا على رجل واحدة مستندا برجله الأخرى إلى الجدع، يراقب محمد الشيدي الذي انحدر بكل جسمه حتى اقترب من قبر الساعة، فوضع رأسه يتصنت بأذنه اليسرى مغمضا عينيه، يستمع، باجهاد، إلى دقات بعيدة قادمة - في تشبيه ما - من جنة مهجورة تقترب من أنات ترزح تحت ثقل غامض.

يرتخي أكثر والليل القادم يتسلل ليغطيه بردائه الظلامي وهو منشغل بالذين يجرون الفجر بالحبال المتينة، وشامة قُدامهم تتلمس الطريق. ينتبه أكثر فيستمع إلى الدقات البعيدة من داخل قبر الساعة أو من السماء لوقع أقدام شامة.. في انتظار الرياح المنتفضة التي ستقتلع الرداء والأحلام من جذريهما.

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)
فاكس : 32.46.44 (03)

المؤلـــف :

من مواليد سطات (الشاوية) 1962

رئيس مختبر السرديات

كلية الآداب ابن امسيك II

يعيش ويشتغل بالدار البيضاء

صدر له :

مساء الشوق / رواية 1992

منشورات الرهان الآخر ـ الدار البيضاء

زمن الشاوية / رواية 1994

افريقيا الشرق ـ الدار البيضاء

جنة مهجورة تحت الأرض!
مشى. وجد. رأى. أمامه جارية
سوداء اسمها زبيبة قادته نحو
قبة كبيرة مؤقتة بكل
أشكال الجلود والسجادات
والرسوم ورائحة طيوب تفوح.
وفي الأقصى القريب إلى
العين والقلب تجلس عبدية على
عرش مذهب، ترتدي
فستانا من نور أحمر وأصفر،
وتحمل بيدها اليمنى كتابها وبيدها الشمال
صولجانا أبيض اللون.
أخيرا عدت الى صوابك يا يوسف.
انتظرتك منذ سنوات
والعشاء الأول مازال باردا ينتظرنا.

مكتبة نوميديا 68
Telegram@ Numidia_Library

الثمن : 32 درهما

ردمك: ISBN: 9981-9958-8-6